سعدي أبو جيب

مروان بن محمد

وأسباب سقوط الدولة الأموية

دار الفكر

١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م

دار الفكر ـ دمشق ـ ساحة الحجاز
ص . ب (٩٦٢) ـ برقياً (فكر) هاتف (١١١٠٤١)

الإهداء

إلى روح أستاذي الكبير

الدكتور يوسف العش

سعدي

بين يدي الطبعة الثانية

لقد شرّق هذا الكتاب وغرّب ، محمولاً على أقلام أهل الفكر والعلم ، يثير النقد والتجريح ، كما يثير المديح والحوار الصريح ...

وهو جدير بهذا وذاك ..

● فاجأ المكتبة العربية ، وللمرة الأولى ، بسيرة خليفة ظلمه التاريخ السياسي ، حتى زهد الناس باسمه ..

● أبدى رأياً جديداً في تعليل سقوط الدولة الأموية التي كانت أكبر دولة في تلك الحقبة من الزمن ..

● كشف عن نفسية أهل هذه البلاد المباركة ، وصلتها بأحداث التاريخ .. فأنّى له أن يسلم من صرير الأقلام ؟..

وها هو في طبعته الثانية يشق الطريق ، داعياً أهل الفكر والعلم والإخلاص كي يعملوا على رفع الظلم الذي حاق بقبيل كريم من رجالنا عبر التاريخ ، ويقولوا كلمة الإنصاف فيهم ، لا المدح الذي يعطي العصمة وينسب المعجزات والخوارق ، ولا الجرح الذي يغضي عن الفضائل ، وينفخ في الصغائر حتى تغدو أكبر الكبائر ...

تلك دعوة للحق .

قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة ..

دمشق : شعبان ١٤٠١ هـ
حزيران ١٩٨١ م

سعدي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بقلم ـ الدكتور شاكر مصطفى

وددت لو كانت فاتحة الكتاب هذه خاتمة عند صفحاته الأخيرة ، يقرؤها القارىء مع آخر أوراق الكتاب حواراً مع قارىء آخر من مثله قرأه . فآخذ منها برأي أو تارك منها لآخر أو محاور ومجادل في بعض ما أثار الكاتب والكتاب من متسكل أو لمس من حق أو نبش من خفي عسيق أو جمع من غثاء أحوى !!.

وددت ... فما أكره شيئاً كرهي لهذه الفواتح المقدمات أقف منها كالقرصان على مدخل الكتاب أقطع الطريق على الرأي الخاص الذي قد يكونه القارىء العابر وألوان الشاشة على الناظرين . وقد أضع كلمة الثناء أو النقد حيث يجب أن أضع الصمت العميق ...

وإذا كنت لا أرضى لنفسي أن أوغل في كتاب وقد وضعت جمجمتي في إطار فكرة مسبقة تلون ما تشاء وتترك من اللون ما تشاء ، أفأرضى لغيري ذلك ؟

لقد وددت ... بلى ! نجوة من الحرج على الأقل . وجمهرة المقدمات إما أوامر وأحكام يوزعها صاحب سلطة علمية ـ وما أنا من ذاك في شيء قليل أو كثير ـ على أجزاء الكتاب وفصوله تعليقاً وتقديراً ونقداً ، أو هي قصيدة مجاملة دون قواف ، تحلف أحياناً ألف يمين بالكذب بينما هي تصوغ ألف كلمة في المديح . أو هي أخيراً دعاوى رخيصة فعل بعض الدعاة التجاريين يقفون بالأجراس عند المخازن إعلاناً عن بضاعة كاسدة وانتهازاً لرخصة عرضت ...

لقد وددت ... وإذا أقدمت بعد هذا كله على هذا المركب الخشن فما ذاك لأنني استطعت التحرر من هذا كله أو بعضه . ولكنها رسالة كتبها أخ صديق . عرفته طالباً لا أذكى ولا أدق ولا أوعى . وأشرف عليها أستاذ كريم يرحمه الله . ما كان أنبل وأخلص وأعلم ، في سيرة رجل مظلوم . ولو لم تدفعني الأولى حباً ومودة . ولا الثانية تقديراً وتجلة . كلفتني هذه الصفة الأخيرة كي أقف بجانب الدراسة وأحمل لها الأجراس وأنادي عليها بملء صوتي ..

المظلومون في التاريخ قبيل طويل . قافلة سوداء الظلال قد تبدأ بجدنا المسكين هابيل . ولكنها ما تزال تزيد كل يوم ، ما تزال تجمع إليها كل عصر جماعة. ومن أعماق الماضي إلى اليوم تدب رعيلاً بعد رعيل ورنين القيود في الآذان . ومساكين أولئك الذين يوقعهم حظهم العاثر تحت الأقدام . ولعل القبيل المظلوم هو الكثرة العظمى من رجال التاريخ . وما أنصف الناس إلا الأقلين.

ومروان بن محمد من الرعيل المظلوم في التاريخ ، يمشي الحمار وراء اسمه دوماً فهو « مروان الحمار » كأنما حكم عليه بالتشهير الأبدي عبر القرون . وما كانوا لعهده ليشهروا امرءاً بأكثر من أن يجعلوه مخالفاً على حمار!.

وهو مظلوم من ناحية أخرى حين جعلوا نهاية الدولة الأموية على يديه ومن عمله وما له في الأمر يدان . وإنما جنى الشوك الذي كان زرع الآخرون .

وظلموه ثالثة حين أبقوا في خلد الناس هزيمة الزاب الخاسرة معركة وحيدة له ولم يذكروا له قبلها أربعين معركة رابحة .

وظلم أخيراً بأنه وقد قتل محارباً شهيد الدفاع عن مكانه السياسي وعن خلافته ولم يذكره أحد بالشهادة ... وذكر غيره كثيرون .. حتى زنكي الذي قضى سكران في فراشه منح لقب « الشهيد »[1].

---

(١) لم أعثر على مؤرخ ثقة قال بذلك .. بل وجدت من ترجم له لا يذكر إلا جهاده وتقاه. حتى قال ابن الوردي في تاريخه « وكان من الزهد والعبادة على قدم عظيم ، يصلي كثيراً من الليل » (١٢٧/٢). وانظر في ذلك أيضا ترجمته في الاعلام (١٧٠/٧) ـ المؤلف ـ .

وإذا كان لصاحب هذا الكتاب من فضل أولي فهو أنه فكر في هذا الرجل ليدرسه من كل جانب • وإذا كان لهذا الكتاب من فضل فهو أنه محاولة إنصاف، وإن تأخرت ، وكلمة حق ترتفع بعد ألف ومئتين وخمسين سنة لترد للرجل الشهيد اعتباره أو بعض ذلك الاعتبار ••

وما هي بأموية متأخرة تثير في دمشقي هذه العصبية للرجل ، وهذه الرغبة في النصفة له ولكنها وقفة أخلاق كرمى للإنسان ، ووقفة علم كرمى للحق المبين••

إن التاريخ الإسلامي كله لم يكتب بعد • لم ينظر فيه بالعين المجردة من الهوى ، العلمية حتى القسوة ، البعيدة الغور حتى لتستشف خلجات الأنفس وما تخفي الصدور • وإذا كان هذا التاريخ ما يزال إلى الآن عبئاً يثقل الكواهل بدلاً من أن يكون باعثاً من بواعث اليقظة القومية فلأنه لم ينظر إليه كتجربة إنسانية كبرى ، كحصاد فيه الحب والزؤان ، ولكلٍّ مكانه ودوره ، ككيان حي له الأعماق والأبعاد والعناصر المركبة المشتبكة •

والتاريخ الأموي بالذات تاريخ مهمل مشوّه معاً • خمسمئة سنة من التاريخ العباسي عملت فيه دفعاً إلى العتمة ونيلاً في الأركان ••• ولقد تقضى ذلك العهد الذي كان يحتاج في السياسة إلى غمط بني أمية ، وفي الجو الديني إلى تفضيل جماعة على آخرين••تقضّى ولكن عقابيل ماسجل وكتب وأضيف وحذف بنتيجة ذلك العهد ما تزال في الكتب ، هي وحدها التاريخ الباقي •• إن جهداً مضاعفاً من التجرد ومن العمق هو وحده الذي يرد ذلك التاريخ حياً وصحيحاً ، ولست أقول رائعاً ناصعاً ولا أسود كالغراب ولا بين بين ، ولكن يرده حياً وصحيحاً ••

وإذا رحبت — وإني لأرحب بالفعل — بهذه الدراسة التي يحتويها القارىء الآن بين يديه ، فلأني أعتقد أن الحقيقة الكبيرة هي مجموعة من حقائق صغيرة مجموعة ، ولأن جلاء التاريخ الأموي إنما تمهد له وتبينه دراسات جزئية عديدة

من مثل هذه يكمل بعضها بعضـا • كما تنير الطـريق العريضة الطويلة سلسلة المصابيح في الليل عقدة عقدة ••

وأهم ما في هذه الدراسة أنها جدية ــ ولات حين دراسة جدية ــ أعني أنها تركت المعجزات والحكايا ونبشت عن الحق في المراجع الأولى ، وأنها طبقت النهج العلمي في البحث وفي التحليل العقلي . فإذا بكثير من الحقائق يتبدى في ضوء جديد لم نكن نعلم ، وإنها أخيراً إنما استهدفت الحق ــ في حدود ما حفظت من الأخبار منه وحدود ما استبان ويستبين ــ •

ولعل هذه الدراسة أن تكون إسهاماً في كشف التاريخ الأموي • وإن بدأت من نهايته ومن آخر العنقود وتركزت حول فترة صغيرة وحول اسم واحد منه •

وأسلوب الكتاب في الرواية والنهج هادىء ، ذكي ، تعليمي ، مجادل ، ولئن ضاق ذرع العجول به فإن من المتأمل المستأني له الثناء والشكر •

ولقد تمنيت لو مد صاحب الدراسة في ذات بحثه فتناول الجانب الاقتصادي ــ الاجتماعي من عهد مروان ، ولو درس أثر التطور الاجتمـاعي والتحولات الاقتصادية بين الشام والجزيرة والعراق خاصة في تحطيم هذا الهيكل الجبار الذي أراد أن يمسك بالعربة على المنحدر فلا تهوي • وما من شك في أن أبعاداً أخرى في المجتمع والاقتصاد كانت تعمل هدماً فيأسس الخلافة الأموية شاء مروان أم أبى، ولعل التغير البنيوي في المجتمع العربي الإسلامي وظهور الطبقة الوسطى مـن الموالي والعرب على السواء والاضطراب المالي في الدولة وتحول طرق التجارة من شواطىء الشام إلى الخط الواصل بين الخليج العربي والقسطنطينية ، بعد هزيمة العرب البحرية سنة ٧٤٧ وخروجهم من بحر الروم ••• لعل لهذه العوامل مـن الأثر الحاسم في هز الكيان الأموي بقدر ما كان للدعوة العباسية كدعوة،وللثورات المحلية الأخرى كتعابير نقمة ، من أثر !•

ولست أشك إلى هذا في أن نصوصاً جديدة أخرى ودراسات تالية ستكشف

الكثير من الغوامض والأحاجي والأبعاد الخفية في هذه الناحية بالذات من نواحي التاريخ الإسلامي ... ولسوف تحمد لهذه الدراسة أنها ـ على أي حال ـ فتحت الطـريق ...

وبعـد

فما هذه بشهادة ألصقها في صدر الكتاب . إنها دعوة لإقامة الحوار معه. مع المشاكل التي أثار والنقاط التي عرض أو لم يعرض ...

ألم أقل من قبل : لقد وددت لو كانت هذه الفاتحة خاتمة عند صفحاته الأخـيرة .

الكويت ١٠/١/١٩٦٩

الدكتور
شاكر مصطفى

المدخل

التاريخ قصة حياة ودرس ..

هو تصوير للحياة بواقعها . بكل ما فيها من خير وشر ..

في تاريخ الأفراد تعرض حياة هؤلاء كما جرت وكما حدثت بصرف النظر عن أضواء المديح وألسنة الثناء أو لظى النقد وتجريح الأعداء ..

وفي تاريخ الأمة نجد تصوير حياتها في عزها وذلتها ، في انتصارها وهزيمتها ، ونجد وصف أيام شبابها ، وكيف هوت ..

يصور التاريخ كل هذا وذاك ويعرضه بعد تجريده من كل شائبة وزغل ، ويكشف عما به من جوهر كشف الخبير الأمين ليقدمه إلى كل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ..

والتاريخ درس بليغ وعبرة ..

فهو حين يعرض سيرة فرد من الأفراد لا للتسلية ولا للملهاة ، ولكن ليتدبرها من يتدبرها ، ويتعظ بكل ما فيها حتى تكون باعثاً له على التقدم ، ومانعاً له من الأخطاء والعثرات .

ونحن حين نقرأ تاريخ أمة نسأل كيف نهضت هذه الأمة ؟. وكيف هوت ، وما هي أسباب كل ذلك ؟. ثم نقف موقف العاقل الواعي الذي يتطلع إلى الكمال حتى يقود أمته إليه ...

هنا يبدو دور التاريخ ، ومكانة المؤرخ العالم ورسالته ... إن بيد المؤرخ الحق ناقوس الخطر كلما لمح بادرة في أمته قد تحدث في جسدها التخريب كما

أحدثت في أمة أخرى ، قام يدق الناقوس ويحذر وينذر ، ولأجل هذا يجب أن تكرم الأمة مؤرخيها ، وتوليهم القيادة الفكرية ..

يكفي التاريخ فخراً أن الله سبحانه تكلم به في القرآن الكريم . أنّى قلبتَ صفحاته وجدت تاريخاً لفرد أو أمة .. وأروع مافي هذا الموضوع أن القـرآن الكريم لفتَ نظر المسلمين إلى رسالة التاريخ وأهميته .. فبعد أن قص الله سبحانه قصص كل من شعيب ، ولوط ، وعاد ، وثمود وقارون ، وفرعون ، وهامان ، قال: « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » (العنكبوت ٤٣)[١] ..

وبعـد :

بهذه الروح التي عرضت بها المقدمة أنظر إلى التاريخ..

وبها كتبت سيرة خليفة أموي عظيم . هو مروان بن محمد ، وبنهايته انتهت الدولة الأموية في المشرق .

حاولت أن أصور حياة ذلك الرجل كما هي ، مجردة عن الهوى ، والعاطفة ، فذكرت ما له ، وما عليه .. كما عرضت إلى نهاية الدولة الأموية ، ولماذا هوت تلك الدولة العظيمة ..

حاولت ذلك جهدي .. فإن وُفقت فذلك الفضل من الله ، وإن أخطأت فيشفع لي أنها الخطوة الأولى ، ومتى كانت الخطوة الأولى سليمة بدون عثرة ؟

---

(١) ستجد هذه النظرة معروضة مفصلة في كتابنا : رسالة التاريخ في القرآن الكريم .

خطة الكتاب

هذه الدراسة تدور حول شخصية مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، وما يتمتع به من مزايا .

في الفصل الأول : عرضت إلى الوسيلة التي سلكها حتى اعتلى عرش الخلافة، وحددت موقفه من بعض الخلفاء ..

وفي الفصل الثاني : ذكرت أبرز الحوادث التي جرت في عصره .. فهذه فتنة داخلية في بلاد الشام ، وتلك حركة للخوارج ، ولشخص من آل البيت ، وهناك أخيراً وصف موجز لحركة بني العباس .. كل ما تقدم عرض موجز مجرد عن التحليل والتعليل ، لأن هذه الناحية هي موضوع الفصل الثالث : شخصية مروان .. وفيه تصوير لملامح هذه الشخصية ، سواء في المجال العسكري ، أم في المجال السياسي . وأفضت في هذا الفصل ما وسعني وعانيت في عرضه كل صعب نظراً لقلة المصادر وندرة أخبار مروان .

وفي الفصل الرابع : تحدثت عن أسباب سقوط الدولة الأموية عند بعض المؤرخين وناقشت كل سبب وأبديت رأياً متواضعاً في تعليل سقوط الدولة الأموية .. وختمت الفصل بدور مروان في هذه النتيجة التي تردت إليها الدولة..

وفي الفصل الأخير : أوجزت نهاية مروان وموقف بني العباس من بني أمية وردة الفعل التي تمثلت في ثورات عدة ..

ووضعت لهذا الكتاب خاتمة مناسبة ..

أرجو أن أكون قد أديت للبحث العلمي دينه علي ، وما أمره من دين ، وأحلاه من وفاء .

والله الموفق .

الفصل الأول

الطَّرِيقُ إِلَى الخِلَافَةِ

تتويج مروان

نحن في دمشق بدار الخلافة ، والشهر صفر الخير من عام سبع وعشرين ومئة للهجرة[1] ، (٧ كانون الأول سنة ٧٧٤ م)[2] ، وقد ازدانت تلك الدار بأبهى حلة، وأحلى زينة ، وغصت بالوفود من كل مكان جاءت تشهد تتويج الخليفة ، الملك ، مروان بن محمد حفيد مروان الكبير ، شيخ بني أمية ..

ولقد سبق هذا الحفل مقدمات ومقدمات تتناسب مع منصب خطير كهذا المنصب ، تتألف من معارك ومؤامرات ، ومن عدد كبير من القتلى شُدخت جماجمها بالفتن العمياء التي لاتبقي ولا تذر ، تجر إليها كل الناس ، ولاسيما إذا كانت تدور حول العرش والصولجان في دولة مترامية الأطراف ، شاسعة الصقع ، كالدولة الأموية[3] يثيرها شخص طموح عرف المجد وعرفه المجد ..

ولا تحسبن المجد زقاً وقينة ... فما المجد إلا السيف والطعنة البكر
وتضريب أعناق الملوك وأن ترى ... لك الهبوات السود والعسكر المجر
وتركك في الدنيا دوياً كأنما ... تداول سمع المرء أنمله العشر

وهكذا كان ، كما قال شاعر العرب أبو الطيب .. فقد ترك مروان في الدنيا

---

(١) في رواية لابن عساكر عن طريق ابى حفص الفلاس أن البيعة كانت يوم الاثنين ٢ صفر سنة ١٢٧ (١٩٧/١٦ (٢)) . وفي رواية أخرى بطريق إسماعيل الخطبي أن البيعة كانت يوم الاثنين ١٥ صفر سنة ١٢٧ (١٩٣/١٦ (٢)) . وأما ابو معشر فذكر أن البيعة كانت في ربيع الاول سنة ١٢٧ (المرجع السابق) . وفي رواية عند ابن عساكر أن البيعة كانت في ٣ صفر سنة ١٢٧ (١٩٧/١٦ (٢)) وبطريق ابي الحاكم أن البيعة كانت في ٣ صفر سنة ١٢٧ (١٩١/٢٦ (٢)) . وفى رواية أخرى أنها كانت في ١٤ صفر سنة ١٢٧ (١٩٣/١٦ (١)) .

(٢) بروكلمان ١٩٧/١ .

(٣) كانت الدولة الأموية حين استيلاء بني العباس عليها تمتد من أقصى الشرق عند كاشغر الى السوس الأقصى على شاطىء بحر الظلمات (الاطلسي) وطولها ٣٦٠٠ فرسخاً وتمتد عرضاً من شواطىء بحر قزوين الى أواخر بلاد النوبة (الخضري : الدولة العباسية ٣٦) وهي دولة لم يكن في العالم اذ ذاك إمبراطورية تضاهيها (شاكر مصطفى ١/١ ـ ٣) .

لنفسه ذكراً ، وسلك إليه خطوة خطوة حتى حظي بالمقعد الأول في الدولة الأموية التي كانت بحق لا تغرب عنها الشمس •••

* * *

ونحن في هذا الموضوع لا بد من أن نحدد صلته ببعض الخلفاء الذين سبقوه• وهم: هشام بن عبد الملك والوليد بن يزيد ويزيد بن الوليد بن عبد الملك وإبراهيم بن الوليد ••

* * *

مع هشام بن عبد الملك

موقف مروان من هذا الخليفة هو موقف المطيع المبايع • وكيف لا يكون كذلك وهشام ولي نعمته ، فهو الذي ولاّه سنة ١١٤ هـ أرمينية وأذربيجان [١] ثم إن شخصية هشام كانت شخصية الحاكم الصارم الشديد اليقظ [٢] التي لا يمكن أن تسمح لشخصية أخرى بمزاحمتها ، ومنحها المركز الرفيع ، ثم إن مروان كان في السِّنِّ دون هشام ••

ومهما يكن ، فإن مروان كان زمن هشام كأي والٍ يعمل في ولايته بصورة ترضي أهل منطقته وترضي الخليفة أولاً وآخراً •••

* * *

مع الوليد بن يزيد

عقد يزيد بن عبد الملك البيعة بعده لأخيه هشام،ثم لولده الوليد بن يزيد [٣]

---

(١) الطبري ٤٢٥/٥ الكامل ٢١٥/٤ • وفي المرجع الاخير ان هشاما ولاه الجزيرة وأذربيجان وارمينيـــة •

والذي نراه أن هشاما لم يول مروان الجزيرة ، وانما جاءته ولاية الجزيرة زمن يزيد بن الوليد، ومما يؤيد رأينا أن الجزيرة كانت زمن الوليد تحت إمرة عبدة بن الرياح الغساني ، وبقي فيها حتى قتل الوليد ،فغادرها الى الشام ، ثم قدم عبد الملك بن مروان بن محمد اليها واحتلها ، وكان مروان بأرمينية (الكامل ٢٢٧/٤) • فلو أن مروان كان والي الجزيرة أيام هشام لكان لا بد من معرفة تاريخ عـــزله عنهاوسبب هذا العزل • وهذا لم يذكره مؤرخ•••

(٢) في مزايا هشام ، انظر ـ اذا شئت ـ الطبري ٥١٥/٥ وما بعدها • الكامل ٢٥٥/٤ • الامامة والسياسة ١٩٨ـ١٩٩ تاريخ الخلفاء ١٦٤ •

(٣) في ترجمة الوليد انظر ـ اذا رغبت ـ الطبري ٥٢٠/٥ وما بعدها • الكامل ٢٦٨/٤ العقـد الفريد ٤٦٢/٤ •

وكان حريصا على حصر ولاية العهد بالوليد فقط لولا صغر الوليد الذي كان حين وفاة والده في الخامسة عشرة من العمر[1] .

ولقد ولي هشام الخلافة بعد أخيه يزيد فكان مثالاً يحتذى بين الخلفاء حزماً وإرادة وقوة شخصية وحسن سياسة . وبقي في الخلافة عشرين سنة نعمت فيها الدولة الاسلامية بالخير . ثم أسلم هشام الروح وهو غير راضٍ عن مسلك الوليد . وكم كان يتمنى لــو أن ولده مسلمة كان على نهجه . إذاً لنقــض بيعة الوليد ، وجعلها لمسلمة بيد أن هذا كان دون أبيه في كل شيء[2].

تركت هذه الأمنية في نفس الوليد حقداً على عمه هشام ، فإذا به يأمــر بمصادرة أموال هشام وأسرته أنّى كانت[3] . وقام كاتبه عياض بن مسلم ــ وكان في سجن هشام حتى ولاية الوليد ــ بختم خزائن هشام ، وإنزال جثته عن فراشه ، حتى أنه لم يبق على وعاء يغسل به الميت ، وهو الخليفة السابق[4] . وجرت هذه المصادرة لأموال أسرة هشام عدا مسلمة لأنه كان يكلم أباه بالرفق بالوليد[5] ..

* * *

تلقى الوليد البيعة من الولاة والأمصار ، وأقبلت إليه الوفود من كل حدب وصوب[6] . ومن الولاة الذين بايعوه مروان بن محمد[7] . وجاءت البيعــة بكتاب وجهه مروان الى الوليد وفيه « بارك الله لأمير المؤمنين فيما أصاره إليــه من ولاية عباده ، ووراثة بلاده . وكان من تغشي غمرة سكرة الولاية ما حمل هشاماً على ما حاول من تصغير ما عظم الله من حق أمير المؤمنين . ورام من الأمر

(١) الطبري ٥/٥٢٠ الكامل ٤/٢٥٦ .
(٢) الطبري ٥/٥٢١ الكامل ٤/٢٥٦ .
(٣) الطبري ٥/٥٢٦ الكامل ٤/٢٥٨
(٤) الطبري ٥/٥٢٦ الكامل ٤/٢٥٨
(٥) الطبري ٥/٥٢٦ الكامل ٤/٢٥٨
(٦) الطبري ٥/٥٢٦ وكانت البيعة في ربيع الآخر سنة ١٢٥ . الكامل ٤/٢٥٨ .
(٧) الكامل ٤/٢٥٨ .

المستصعب عليه . الذي أجابه إليه المدخولون في آرائهم وأديانهم . فوجدوا ما طمع فيه مستصعباً ، وزاحمته الأقدار بأشد مناكبها ، وكان أمير المؤمنين بمكان من الله حاطه فيه حتى أزّره بأكرم مناطق الخلافة فقام بما أراه الله له أهلاً ونهض مستقلاً بما حمل منها مثبتة ولايته في سابق الزبر بالأجل المسمى خصه الله بها على خلقه ، وهو يرى حالاتهم ، فقلده طوقها ، ورمى إليه بأزمة الخلافة وعصم الأمور . فالحمد لله الذي اختار أمير المؤمنين لخلافته ، ووثائق عرى دينه . وذبّ له عما كاده فيه الظالمون ، فرفعه ووضعهم . فمن أقام على تلك الخسيسة من الأمور أوبق نفسه . وأسخط ربه . ومن عدلته التوبة نازعاً عن الباطل إلى حق ، وجد الله تواباً رحيماً ..

أخبر أمير المؤمنين أكرمه الله أني عندما انتهى إليّ من قيامه بولاية خلافة الله نهضت إلى منبري عليّ سيفان مستعداً بهما لأهل الغش ، حتى أعلنت من قبلي ما امتن الله به عليهم من ولاية أمير المؤمنين ، فاستبشروا لذلك ، وقالوا لم تأتنا ولاية خليفة كانت آمالنا فيها أعظم ، ولا هي لنا أسر من ولاية أمير المؤمنين وقد بسطت يدي لبيعتك فجددتها ووكّدتها بوثائق العهود ، وترداد المواثيق، وتغليظ الأيمان ، فأبثهم يا أمير المؤمنين بطاعتهم من مال الله الذي آتاك ، فإنك أجودهم جوداً وأبسطهم يداً ، وقد انتظروك راجين فضلك قبلهم بالرحم الذي استرحموك ، وزدهم زيادة يفضل بها من كان قبلك ، حتى يظهر بذلك فضلك عليهم على رعيتك . ولولا ما أحاول من سد الثغر الذي أنا به لخفت أن يحملني الشوق إلى أمير المؤمنين أن استخلف رجلاً على غير أمره ، وأقدم لمعاينة أمير المؤمنين ، فإنه لا يعدلها عندي عادل نعمة . وإن عظمت . فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في المسير إليه لأشافهه بأمور كرهت الكتاب بها ، فعل »[١].

بعد قراءة عابرة لهذا الكتاب[٢] وما فيه من مبالغات نجد أن موقف مروان هو موقف السياسي الذي لا يتطلب من الخليفة الجديد إلا أن يقره على ولايته،لأن

---

(١) الطبري ٥/٥٢٦ .

(٢) سنعرض لهذا الكتاب بالتحليل في الفصل الثالث عند الحديث عن مروان السياسي .

الخليفة ، وهو سيد دولة مترامية الصقع ، لايمكن أن يمسك الأمور بيده مباشرة. لتعذر الاتصال المباشر بين العاصمة والأطراف . ولذلك فإنه يعهد إلى ولاة يسيرون وفق رغبته ؛ ويعبرون عن نهجه السياسي ، وأسلوبه في إدارة الدولة ، فيوليهم ثقته ، ويطلق يدهم .. لهذا كان من بدائه الأمور أن الخليفة الذي يرغب بنهج يغاير نهج الخليفة السابق يلجأ إلى الولاة ، فيعمل فيهم التغيير والتبديل .. وهكذا نرى الوليد يبدأ بعزل ولاة هشام خلا يوسف بن عمر الثقفي عامل العراق [١].

وتصرف الخلفاء هذا ليس مستغرباً . فنحن نجد الحكومات تلجأ إليه في العصر الحاضر . فالحكومة الجديدة تبدأ عملها بتغيير وتبديل كل محافظ لا ينسجم مع سياستها رغم أن دور المحافظ دون دور الوالي .. الوالي يملك كل شيء في ولايته والمحافظ لا يملك شيئاً .

ولكي يحرص الوالي ، أو المحافظ ، على البقاء في منصبه عليه أن ينال رضا الحكومة الجديدة أو الخليفة الجديد ... وهكذا فعل مروان ...

أقر الوليد مروان على ولايته ، وانطلق لتسيير الأمور في الدولة . ولعل من أهم الأعمال التي قام بها أن عقد البيعة لولديه الحكم وعثمان أحدهما بعد الآخر وكتب بذلك كتاباً إلى ولاة الأمصار لأخذ البيعة لهما [٢]، وهو كتاب طويل مؤرخ في أواخر شهر رجب سنة ١٢٥ هجرية[٣] .

* * *

مع يزيد بن الوليد

أثار الوليد في تصرفاته الشخصية شعور الناس ، فحرك العصبية،وأججها، وزاد في ذلك سلوكه الشخصي[٤] الذي لا يتلاءم مع مقام الخلافة في دولة أقرب

---

(١) اليعقوبي ٣٣١/٢ .
(٢) الكامل ٢٥٩/٤ .
(٣) الطبري ٥٢٨/٥ .
(٤) الطبري ٥٣٨/٥ الكامل ٢٦٤/٤ .

ما يتّقون للاسلام تعج بالتابعين والعلماء والفقهاء . وقد استغل كل هذا شخص من الأسرة الحاكمة . مــن بني أمية ، هو يزيد بن الوليد ، فجمع حــوله بعض الناقمين ، وهاجم دار الخلافة ، وقتل الوليد بن يزيد الذي حاول التشبه بالخليفة الراشدي الشهيد عثمان بن عفان رضي الله عنه ... لقد قتل الوليد وهو يقــرأ القرآن ، وكان يقول : يوم كيوم عثمان[1] .. ولكن ما أبعد البون بين الرجلين في كل شيء ...

كان مقتل الوليد يوم فتنة استغله والٍ خطير الشأن عركته الأيام وعركها. هو القابع في شمال الدولة ، مروان بن محمد ... تحرك مروان من الشــمال ثأراً للوليد ، الخليفة المقتول ، إلا أن يزيد فاوضه ، وعرض عليه أن يمنحه الولاية التي كانت لأبيه محمد بن مروان زمن عبد الملك ، فرضي مروان . وبايع يزيد، وأرسل إليه الوفود . وهكذا أصبح مروان سيد الجزيرة وأرمينية والموصــل وأذربيجــان[2] .

وقد اختلف المؤرخون في سبب خروجه ... فمنهم من زعم أن مروان إنما خرج خالعاً ليزيد بن الوليد ، حتى إذا وصل إلى حران دعا لنفسه ، فبايعه أهل الجزيرة سراً[3] .. ومنهم من قال بأن مروان دعا الناس إلى بيعة من رضيــه المسلمون إماماً فاستجابوا له[4] .. ومنهم من ذهب إلى أن مروان إنما خرج من الجزيرة بعد موت يزيد ، فلما انتهى إلى قنسرين دعا أهلها إلى بيعته ، وفي حمص بايعــه أهلها وســاروا معه[5] .. بينما قال مؤرخ آخر أن مروان دعــا الناس

---

(١) في سبب مقتل الوليد انظر ـ اذا شئت ـ الكامل ٤/٢٦٤ وما بعدها . ابن خلدون ٣/٢٢٧ . وكان قتله يوم الخميس ٢٦ جمادي الآخرة سنة ١٢٦ هـ . الطبري ٥/٥٥٦ .

(٢) الطبري ٥/٥٩٣ الكامل ٤/٢٧٨ .

(٣) اليعقوبي ٢/٣٣٧ .

(٤) ابن عساكر ١٦/١٩٣ (٢) .

(٥) الكامل ٤/٢٨٣ ـ ٢٨٤ .

في حمص إلى بيعة الحكم وعثمان ولدي الوليد ، وهمـا في سجن إبراهيم بن الوليد[1] .

ونحن نقبل بجميع هذه الروايات من جهة تحديد سبب خروج مروان إذ ليس بمستبعد أن يدعو مروان دعوة في مكان ويأتي بأخرى في مكان آخر وثالثة في مكان غيره .. والمهم في الأمر أن يستغل الظرف الحرج الذي تمر به الدولة الأموية ... وإن علينا أن نقرر الآن حقيقة هامة وهي أن يزيد استطاع أن يوقف زحف مروان بتوسيع ولايته ، وأن يفوز ببيعة مروان له .. وما على مروان إلا أن ينتظـر ...

والغريب أن المؤرخ يوليوس ولهاوزن لا يشير إلى اعتراف مروان بخلافة يزيد ، فنراه يقول : إن كل الناس اعترفوا بخلافته ـ أي بخلافة يزيد الثالث ـ مسرعين .. فنصر بن سيار في خراسان ومروان بن محمد في أرمينية والجزيرة لم يعدا نفسيهما من عماله ، واتخذا موقف الانتظار ليريا ما يحدث ، ولم ينتظـرا طويلا ، فقد توفي يزيد يوم الجمعة ١٢ من ذي الحجة سنة ١٢٦ (٢٥ أيلول سنة ٧٤٤) بعد ١٦٢ يوماً من توليه الخلافة[2].

ولقد ذكر صاحب العقد الفريد أن يزيد بن الوليد كتب إلى مروان بن محمد بالجزيرة ، وقد بلغه أنه تلكأ في بيعته .. « أما بعد : فإني أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى ، فإذا أتاك كتابي هذا فاعتمد على أيهما شئت ، والسلام ..» ثم قطع إليه البعوث ، وأمر لهم بالعطاء ، فلم ينقص عطاؤهم حتى مات يزيد . ولما بلغ مروان أن يزيد قطـع البعوث إليه كتب ببيعته وبعث وفـداً عليهم سليمان بن علاثة العقيلي[3] ، فخرج إلى أن قطعوا الفرات ، فلقيهم البريد بموت يزيد فانصرفوا إلى مروان بن محمد[4] ..

---

(١) ابن عساكر ١٦/١٩٣ (٢) .

(٢) ولها وزن ٢٩٤ .

(٣) في الطبري (محمد بن عبد الله بن علاثة العقيلي) .

(٤) العقد الفريد ٤/٤٦٤ ـ ٤٦٥ .

والذي نرجحه أن مروان بايع يزيد بالخلافة نظراً لجزم الطبري وابن الأثير بأن البيعة قد حصلت ، وقبض مروان الثمن كما ذكرنا آنفاً ..

لقد عرفنا عند الحديث عن الوليد كيف أن بيعة مروان له كانت سياسية بحتة . فهو يريد من الخليفة الإبقاء عليه في منصبه ومركزه .. ويتكرر هذا الآن مع يزيد .. مروان بايع يزيد بن الوليد بيعة السياسي الطامع ، فهو من جهة مدَّ يده إلى يزيد بالبيعة ، ومن جهة أخرى مدَّ لسانه بالنيل منه .. وقد اشتهر يزيد بالناقص ، وهو نعت منحه مروان له .. ولو أن حكم يزيد قد طال أكثر لاتضح لنا موقف مروان جلياً .. فقد حكم يزيد ستة أشهر فقط ..

* * *

مع إبراهيم بن الوليد

مات يزيد بن الوليد[١] ، فولي الخلافة بعده شقيقه إبراهيم[٢] ، ولم تطل مدة خلافته أكثر من أربعة أشهر[٣] ، وكان خلعه في شهر ربيع الآخر سنة ١٢٦هـ ، وكان خلالها يسلم عليه تارة بالخلافة وتارة بالإمارة[٤] ، وما لبث أن بايع مروان بالخلافة ...

* * *

في عصر إبراهيم على قلة أيامه جرت أهم الأحداث التي اجتازها مروان حتى تبوَّأ سدة الخلافة ...

خرج مروان من أرمينية إلى الجزيرة ثأراً لدم الوليد المقتول ، فتلقاه يزيد بالمفاوضة والمساومة ، فتمكن من إقناعه بوقف الزحف ، والبيعة لقاء ولاية يعقدها له على الجزيرة والموصل وأذربيجان ، فضلاً عن أرمينية الولاية القديمة التي

(١) كانت وفاته في ذي الحجة سنة ١٢٦ . الطبري ٥/٥٩٥ الكامل ٤/٢٧٨ .
(٢) اخذ يزيد البيعة لاخيه ابراهيم ومن بعده لعبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك . الطبري ٥ / ٥٩٢ .
(٣) اليعقوبي ٢/٣٣٧ .
(٤) الطبري ٥/٥٩٦ الكامل ٤/٢٧٨ تاريخ الخلفاء ١٦٩ .

كانت له منذ أيام هشام بن عبد الملك ••• والآن وقد مات يزيد فماذا يصنع مروان ؟•••

في دمشق رجل يدعوه الناس تارة خليفة ، وأخرى أميراً ، وتمضي أيامه بين اللقبين ، وتبعاً لذلك تضطرب أمور العاصمة نفسها • ولئن كان يزيد قد أرضى مروان بولاية واسعة ، فماذا يفعل إبراهيم ؟• هل يملك أن يقدم له ولاية أخرى؟ إبراهيم نفسه لا يملك لقباً معيناً ، فهل يقدر على أن ينتزع ولاية من أحد ولاته ليرضي بها الرجل المتربص في الشمال ؟• ولو استطاع إبراهيم ذلك فهل يقبل مروان ؟• أغلب الظن أن هذا الرجل لن يرضى سوى الخلافة منصباً ، والطريق أمامه سهلة والظروف حوله تلح عليه أن يغذّ السير نحو دمشق ••

تحرك مروان بجيوشه من الجزيرة بعد أن ترك على الرقة ولده البكر عبد الملك ، وزوّده بجيش لجب[1] ، واتجه نحو قنسرين ، فتصدى له بشر بن الوليد وشقيقه مسرور[2] ••• وفي ميدان الوغى استطاع مروان أن يأخذ البيعة لنفسه من جند بشر ، وأن يأسر الأخوين القائدين ، ويسجنهما[3] ، ويتجه بجندهما مع جنده نحو حمص التي كانت متمردة إثر مقتل الوليد ، ففتحت له أبوابها ، لأنه المطالب بدم الوليد والتفت حوله[4] ، وما هي إلا أيام حتى خرج مروان بالجحافل الجرارة نحو دمشق •

شعر إبراهيم ومن حوله بالخطر الداهم المتدفق من جهة حمص ، فاستعدوا للقتال ، وتمكنوا من جمع مئة وعشرين ألفاً من الجند كانوا بإمرة سليمان بن هشام خرج بهم إلى قرية في البقاع تسمى عين الجر[5] •• وهناك التقت جموع

---

(١) الطبري ٥/٥٩٧ الكامل ٤/٢٨٢ •

(٢) في ترجمة مسرور نجد أنه كان ناسكا وكانت عنده بنت للحجاج ••• العقد الفريد ٤/٤٢٢ •

(٣) الطبري ٥/٥٩٧ الكامل ٤/٢٨٢ اليعقوبي ٢/٣٣٧ العقد الفريد ٤/٤٦٦ ـ ٤٦٧ تاريخ الاسلام ٥/٣٢ •

(٤) الطبري ٥/٥٩٧ •

(٥) يذكر الذهبي ان مروان التقى بسليمان بن هشام في عذراء، وهناك جرت بينهما موقعة مشهورة ثم انهزم سليمان (تاريخ الاسلام ٥/٣٢) • وهذا خطا والصواب ان المعركة الاولى والكبرى بين الفريقين كانت في عين الجر لا في عذراء •

سليمان بجموع مروان ؛ وكان مع مروان ثمانون ألف رجل[1] ..

هذه هي المعركة الفاصلة لأن كلاً منهما قد أعد لها كل ما يملك من رجال وعتاد . وكان على رأس كل من الجحفلين قائد من أكبر القواد .. مروان قائد جند الشمال ، وسليمان بن هشام الذي عرف الحرب في أرض الروم وغيرها ، وعرفت فيه القائد المحنك الخبير في ميدان الحرب[2] ، ومعه في هذه المعركة جند دمشق في جيش عرمرم يفوق جند مروان عدداً وعُدداً .. ودارت رحى الحرب فطحنت الآلاف المؤلفة من الجانبين دون رحمة ، وهدأت . فإذا بالهزيمة تحيق بجند دمشق الذين أصبحوا بين قتيل ومنهزم وأسير[3] . وبين المنهزمين قائد جيش الخليفة سليمان بن هشام .

أما الأسرى فقد عاملهم مروان معاملة خاصة . فهو قبل بدء المعركة دعا جند دمشق إلى الكف عن القتال ، وترك ابني الوليد ، الحكم وعثمان ، وكانا في السجن ، وهو يعفو عن قتلة الوليد ، فأبى جند دمشق إلا الحرب ، وكانت النتيجة بالإضافة إلى آلاف القتلى ، آلافاً من الأسرى وقعوا في قبضة مروان ينظرون أمره ، إما الموت وإما الحياة ، ولكن مروان منّ عليهم ، وأطلق سراحهم ، وعفا عنهم بعد أن أخذ البيعة لابني الوليد ، ومنح كل أسير ديناراً ، وأمّنهم حتى يلحقوا بأهليهم[4] . ولم يقتل من الأسرى سوى رجلين فقط[5] .

* * *

وصل المنهزمون دمشق وقد سمعوا من مروان دعوته لابني الوليد قبل المعركة

---

(١) كانت المعركة يوم الاربعاء ٧ صفر سنة ١٢٧ هـ . الطبري ٥٩٧/٥ الكامل ٢٨٣/٤ اليعقوبي ٣٣٧/٢ سيد امير علي ١٤٤ .

(٢) في وصف سليمان بن هشام ، انظر ـ اذا رغبت ـ الدكتور العش ٢٩٥ .

(٣) باغ عدد قتلى جيش هشام ١٧ الفا . الطبري ٥٩٨/٥ الكامل ٢٨٣/٤ .

(٤) الطبري ٥٩٨/٥ الكامل ٢٨٣/٤ .

(٥) هما يزيد بن العقار والوليد بن مصاد الكلبيان وهما من قتلة الوليد . الطبري ٥٩٨/٥ الكامل ٢٨٣/٤ ولها وزن ٢٩٩ .

كما وصل الأسرى بعد أن أخذ مروان منهم البيعة لابني الوليد ، وصل هؤلاء وأولئك فماذا كانت النتيجة ؟..

أدرك الخليفة إبراهيم ومن حوله أن الأمر أفلت من يدهم ، وما عليهم إلا أن يتدبّروا أمرهم بينهم .. قال بعضهم بقتل ابني الوليد ، لأن مروان حين يأتي إلى دمشق ــ وهو لا شك آتٍ ــ لابد وأن يبايع ابني الوليد ، فإذا صار الأمر لأحدهما وأصبح خليفة ، فإنه سيقتص من قتلة أبيه ، وسينتقم منهم أشد الانتقام [1] .. وخشية ذلك عزموا على قتل الغلامين ، ونفذوا ما عزموا عليه في الوقت الذي كان مروان يتجه فيه نحو دمشق..

دخل مروان دمشق فوجد إبراهيم قد لاذ بالفرار[3] وسليمان بن هشام قد انتهب بيت المال ، وقسّمه بين جنده وخرج بهم[4] باتجاه تدمر مركز الكلبيين. وفي دمشق بويع مروان بالخلافة ..

* * *

بيعة الخليفة الجديد

تقول الروايات أن أبا محمد السفياني من بني أمية كان في سجن إبراهيم مع الحكم وعثمان ابني الوليد ، وأنه خرج منه سليماً رغم محاولة قتله . هذا الرجل بايع مروان بالخلافة ، فنهاه عن ذلك ، فقال أبو محمد : إن ابني الوليد قد جعلا الخلافة لك . وأنشد شعراً قاله الحكم ، وفيه الحث على الثأر للوليد ، وفيه مدح مروان والبيعة له :

---

(١) الطبري ٥/٥٩٨ الكامل ٤/٢٨٣ .

(٢) والذي تولى قتلهما يزيد بن خالد بن عبد الله القسري بامر من عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك وقتل معهما يوسف بن عمر الثقفي (اليعقوبي ٢/٣٣٨ العقد الفريد ٤/٤٦٧) وعند ابن الاثير أن يزيد بن خالد القسري أمر مولى أبيه أبا الاسد بقتلهما مع يوسف ، فقتلهم . الكامل ٤/٢٨٣ .

(٣) الطبري ٥/٥٩٩ الكامل ٤/٢٨٣ .

(٤) ذكر الذهبي أن ابراهيم قد عسكر بظاهر دمشق وانفق الاموال في العسكر الا أنهم خذلوه وتفللوا عنه (تاريخ الاسلام ٥/٣٢) وقد حدد ابن عساكر هذا المكان بأنه باب الجابية (١٦/١٩٣)(٢). انظر أيضا في خروج سليمان ابراهيم : الطبري ٥/٥٩٩ الكامل ٤/٢٨٣ .

ألا مــن مبلــغ مــروان عنــي | وعمّي الغمر طال بذا حنينا
بأني قد ظُلمت وصــار قومي | على قتل الوليد متابعينــا
أيذهب كلبهم بدمي ومــالي | فلا غثّاً أصبتُ ولا سمينا
ومروانٌ بأرض بني نــزارٍ | كليث الغاب مفتــرس عرينا
ألم يحزنك قتل فتى قريشٍ | وشــقّهمُ عصـــيٌّ المسلمين
ألا فاقرَ السلام على قريش | وقيس بالجـــزيرة أجمعينــا
وساد الناقص القدري فينــا | وألقى الحرب بين بني أبينا
فلو شهــد الفوارس من سُليم | وكعبٍ لــم أكــنْ لهمُ رهينــا
ولو شهدت ليوث بني تميم | لما بعنا تراث بني أبينــا
أتنكث بيعتي من أجل أمي | فقد بايعتمُ قبلي هجينــا
فليت خؤولتي من غير كلبٍ | وكانت في ولادة آخـــرينا
فإن أهلكْ أنا وولي عهدي | فمــروانٌ أمــير المؤمنينــا

وتقدم أبو محمد بعــد إنشاده لهذه القصيدة ، فبايع مــروان بالخلافة ، وبايعه من كان معه ، وبايعته دمشق(١) .

ونحن لا نستبعد أن تكون هذه القصيدة ، وما سبقها من بيعة أبي محمد، ونهي مروان له عن البيعة ، ثم تصريح السفياني بأن الحكم قد أوصى بالخلافة لمروان ، وأكد ذلك بقصيدة شعر ، كل هذه حركة تمثيلية لإظهار مروان بمظهر الزاهد بالخلافة ، المتعفف عن عظمتها ، الورع عن أبهتها ، وأنها أتته تكليفاً ..

والذي يؤكد رأينا أن القصيدة لا يعقل أن تكون من نظم فتى قتل يوم قتل وهو لم يزد عن الخامسة عشرة من العمر ، ولم يسبق أن رُوي عنــه نظم الشعر ، هي قصيدة من نظم شاعر عرف الشعر ومرن به وخبره ..

إن هذه التمثيلية لا تتلاءم مع شخصية مروان ، تلك الشخصية الطموح

---

(١) انظر الرواية كاملة عند الطبري ٥/٦٠٦ اليعقوبي ٢/٣٣٧ الكامل ٤/٢٨٣ .

إلى المجـد والتي ليس عندها أية ذرة مـن زهد العمرين : ابن الخطاب وابن عبد العـزيز ..

* * *

المهم في الأمر أن مروان قد أصبح خليفة المسلمين وأمير المؤمنين ، وأتتـه البيعة من الولاة والناس[1] من أرجاء الدولة ، حتى الخليفة السابق إبراهيم بـن الوليد قد بايعه بالخلافة[2] مع سليمان بن هشام[3] ، وبقية الأسرة الأموية..

* * *

(١) ابن عساكر ١٦/١٩٣ (٢) اليعقوبي ٢/٣٣٨ .

(٢) ذكر المسعودي أن مروان بعد أن دخل دمشق خرج ابراهيم بن الوليد هاربا ، فظفر به مروان، فقتله ، وصلبه ، وقتل من مالأه ووالاه وبينهم عبد العزيز بن الحجاج (٣/٢٣٩) . وبنفس هذا القول قال الدينوري (الاخبار الطوال ٣٣٤) . وعاد المسعودي فذكر عند حديثه عن معركة الزاب أن ابراهيم ابن الوليد قد غرق في الزاب مع ثلاثمائة رجل من بني أمية (٣/٢٦٠) ثم انه ذكر الرواية الاولى معادة ولكن بصيغة التضعيف حين قال : وقيل ... (٣/٢٦٠) بينما ذكر هذه الرواية في المكان الاول بمـا يفيـد صحتها ..

(٣) الطبري ٥/٦٠٧ الكامل ٤/٢٨٤ . ويحدد اليعقوبي بيعة ابراهيم لمروان أنها جرت في يـوم الاثنين ١٥ صفر سنة ١٢٧ هـ (٣/٣٣٧) وقد بقي ابراهيم مع مروان حتى غرق بالزاب (اليعقوبي ٣/٣٣٧ تاريخ الخلفاء ١٦٩) .

الفصل الثاني

عصر مروان

ملامح عامة

إذا وصفنا عصر مروان بكلمة عابرة قلنا إنه عصر اضطراب وثورات وفتن ... وإذا أردنا الدقة قلنا إنه عصر" انصبت به رواسب الحقد كافة على الدولة الأموية ، واجتمعت كلها في عصر مروان ، فلم يتسع لها ، فانفجر ، وقضى على الدولة الأموية في المشرق ...

في هذا العصر نجد نشاطاً للخوارج ، وثورة منظمة لآل البيت ، أو بالأحرى لبطن من آل البيت ، كما نجد فتناً أخرى ساعدت على نمو النشاط الهدام وعلى انتشار الثورة ...

كل هذه الأشياء كانت على اتفاق غير مباشر ، يجمعها هدف مشترك ، هو الخلاص من الدولة الأموية .. ولئن استطاعت حركة بني العباس القضاء على الدولة في معركة الزاب ، فإن هذا الانتصار لم يكن إلا بفضل التنظيم والتخطيط، ولو كان الأمر مثل ذلك عند الخوارج ، أو مثيري الفتن ، أكثر مما هو عند بني العباس لآل الأمر إلى هؤلاء قبل بني العباس ..

* * *

الفتن في بلاد الشام

ما هي أسبابها ؟

إن سياسة الخلفاء لعبت دوراً كبيراً في إذكاء هذه الفتن . تلك السياسة القائمة على العصبية القبلية . وإن جذور هذه السياسة بدأت منذ زمن معاوية ابن أبي سفيان مؤسس الدولة[١] . وبقيت مستمرة حتى نهاية الخلافة الأموية عدا فترة حكم الخليفة الصالح عمر بن عبد العزيز ..

ولئن كانت هذه العصبية قد ظهرت واضحة جداً في معركة مرج راهط . والتي كانت صراعاً بين القيسية واليمنية . انتهت بهزيمة قيس . وانتصار مروان ابن الحكم واليمنيين معـه . إلا أنها سرعان ما خبا أثرها نظراً لقـوة الخلفاء وشخصيتهم ، وهذا الأثر الخابي لا يزول وإنما هو باقٍ في صميم النفسية العربية التي تعتز بالأسرة والعشيرة والقبيلة حتى يومنا هذا الذي نحن نعيش فيه رغم كل مظاهر التمزق الذي يعيشه الشعب العربي ..

أقول إن جذوة العصبية في نفوس العرب سرعان ما تظهر من جديد . وبقوة. إذا وجدت من يستغلها ويزكيها . وهذا ما حدث في الفترة الأخيرة من الحكم الأمـوي ...

* * *

الوليد بن يزيد أفسد على نفسه اليمانية ، وهم أعظم جند الشام[٢] بسياسته

(١) يذكر عباس محمود العقاد ان بني امية ، كانوا على شبه محالفة بينهم وبين بني كلب اقوى القبائل بادية الشام وأشدها خطرا على الغساسنة ، ... معاويه ٣٢ .

(٢) الطبري ٥/٥٣٨ .

التي اتبعها . وكان من جراء ذلك أن لقي مصرعه على يد اليمانية ، وقضاعة[١].
ونصب هؤلاء يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، وأتته البيعة من مضر كرهاً[٢] ..
ثم إن المضرية ثأرت لقتل الوليد بتأييدها لمروان بن محمد الذي تحرك من الجزيرة مناديا بالثأر للوليد لأن أخوال الوليد من قيس[٣] . مما نجم عنه انحراف اليمانية عن مروان ، وانضمامهم إلى الدعوة العباسية[٤] ..

* * *

انتقلت هذه العصبية أيضاً إلى الولايات . ونجم عنها صراع مسلح بين اليمانية والمضرية .. كما حدث مثلاً في الأندلس إثر وفاة أميرها ثوابة بن مسلمة، وكان كل فريق يريد أن يكون الأمير منه[٥] .. وفي خراسان ظهرت العصبية بشدة أدت إلى حدوث معارك في أرض بلخ ، في الوقت الذي كانت فيه نذر الخطر تحدق بالدولة الأموية[٦] .

* * *

تمرد أهل حمص وسائر بلاد الشام :

بعد أن بويع مروان بالخلافة بدمشق انصرف لتسيير أمور الدولة . فعيّن ولاته وفق طلب سكان كل ولاية[٧] . ولعل من أهم هؤلاء وأشدهم خطراً ثابت ابن نعيم الجذامي ، الذي لعب دوراً هاماً في إذكاء الفتنة[٨] . ولثابت بن نعيم حكاية يجب أن تروى وهي تحدد سبب هذا التمرد ...

سجن هشام بن عبد الملك ثابت بن نعيم ، لأنه أفسد الجيش الذي أرسله الخليفة إلى المغرب لحرب البربر المتمردين سنة ١٢٦ هـ ، فشفع له مروان عند

(١) الطبري ٥/٥٣٩ ابن خلدون ٣/٢٢٧ .
(٢) الطبري ٥/٥٤٣ الاخبار الطوال ٣٣٢ .
(٣) الطبري ٥/٦١٥ الاخبار الطوال ٣٣٤ .
(٤) المسعودي ٣/٢٤٥ .
(٥) الكامل ٤/٣٠٨ حوادث سنة ١٢٩ هـ .
(٦) انظر نماذج من هذه العصبية : الطبري ٥/٣٧٩ ابن خلدون ٣/٢٥٠ .
(٧) الطبري ٥/٦٠٧ .
(٨) ولهاوزن ٣٠٢ .

هشام ، فأطلق سراحه ، وأخذه مروان معه إلى أرمينية حيث أكرمه وولاه[1] .. وقد وجهه مروان إلى ثغر الباب لتثبيت الجند في ذلك المركز ، فطفق يدعو الجيش إلى ترك الثغر[2] . ويظهر أن مروان عفا عنه .

وحينما خرج مروان باتجاه الشام في عهد يزيد بن الوليد سنة ١٢٦ قام ثابت يحرض أهل الشام بالانخذال عن مروان والانضمام إليه ، ليسير بهم ، ويتولّى أمرهم ، فأطاعوه ، وانفصلوا عن جيش مروان ، فتمكن هذا منهم ، وسجن ثابتاً[3] .. ويظهر أنه أطلق سراحه وعفا عنه مرة أخرى[4] .

بايع ثابت مروان بدمشق ، على ما يظهر ، فولاه فلسطين بناء على رغبة أهلها ، إلا أن ثابتاً قابل هذا الجميل بأن كاتب اليمانية وراسلهم ، ودعاهم إلى خلع مروان[5] .

ليس عمل ثابت بمستغرب ، فهو يماني العصبية ، بل هو رأس اليمانية في زمنه[6] . وكان يتقلد ديوان فلسطين للخليفة السابق إبراهيم بن الوليد[7] .. ونحن نعرف موقف مروان من اليمنية وإبراهيم ..

بقي مروان بدمشق ثلاثة أشهر بعد البيعة ، ثم خرج منها نحو حمص التي تحركت فيها الثورة ، فاستنجدت بني كلب ، وكانت تدمر لهم مركزاً ، فقدمها ألف فارس بقيادة الإصبع بن ذؤالة الكلبي وذلك ليلة الفطر سنة ١٢٧ هـ ، ولم يكن مروان قد وصلها بعد . حتى إذا وصلها فرض عليها حصاره ، فاستسلمت إليه ، وفتحت له أبوابها فدخلها وجرت بعض المعارك في المدينة[8] .

---

(١) الطبري ٥/٥٩٤ الكامل ٤/٢٧٧ .
(٢) الطبري ٥/٥٩٤ .
(٣) الطبري ٥/٥٩٥ اليعقوبي ٢/٣٣٦ الكامل ٤/٢٧٧ – ٢٧٨ .
(٤) اليعقوبي ٢/٣٣٦ .
(٥) تهذيب ابن عساكر ٣/٣٧٢ .
(٦) الطبري ٥/٥٩٣ تاريخ الاسلام ٥/٣٢ .
(٧) الوزراء والكتاب ٧١ .
(٨) الطبري ٥/٦٠٨ الكامل ٤/٢٨٦ ولها وزن ٢٠٣ .

وبينما كان مروان في حمص ثارت دمشق أيضاً ، فأرسل إليها مروان قائده أبا الورد بن الكوثر بن زفر في عشرة آلاف ، فتمكن هذا من القضاء على الثورة، وقتل قائدها يزيد بن خالد القسري وأمير أهل الغوطة الثائر زامل بن عمرو ، وأرسل برأسيهما إلى مروان في حمص[1] .

* * *

وفي فلسطين تحرك رأس الفتنة وموقدها ثابت بن نعيم ، وحاصر طبرية ، فشخص إليه أبو الورد بأمر مروان ، والتقى في معركة فاصلة مع ثابت تمكن أبو الورد من إحراز النصر وأسر أولاد ثابت .

وقد فر ثابت من فلسطين إلى مصر ، فدخلها ومعه جماعة من اليمانية ، ودعوا الناس إلى خلع مروان ، فاستجاب لهم أهل مصر،ولم يخالف منهم أحد [2]

ويظهر أن دخول ثابت إلى مصر كان باتفاق مع واليها حفص بن الوليد [3]

ولم يطل بثابت المقام في مصر ، فقد تصدى لقتاله زبّان بن عبد العزيز بن مروان وقاتله وهزمه[4] .

وبعد ذلك تمكن قائد آخر من قواد مروان هو الرماحس بن عبد العزيز الكناني من القبض على ثابت ، وأرسله إلى مروان ، فقتله ، وقتل معه أولاده [5] وبذلك انتهت حياة ثابت هذه النهاية المفجعة ...

* * *

---

(١) الطبري ٦٠٩/٥ الكامل ٢٨٦/٤ ولها وزن ٣٠٢-٣٠٣ .

(٢) ولاة مصر ص ١٠٧ - ١٠٨ .

(٣) المرجع السابق ص ١٠٧ .

(٤) المرجع السابق ص ١٠٩ .

(٥) الطبري ٦٠٩/٥ الكامل ٢٨٦/٤ - ٢٨٧ اليعقوبي ٣٣٩/٢ تاريخ الاسلام ٣٢/٥ تهذيب ابن عساكر ٣٧٢/٣ ولها وزن ٣٠٣ . ويحدد الطبري تاريخ قتل ثابت بانه جرى في شوال سنة ١٢٨ (١٧/٦) ...

حركة سليمان بن هشام :

قلنا فيما سبق[١] أن سليمان بن هشام كان قائداً للجيش الذي جابه مروان في معركة عين الجر والتي انتهت بهزيمته ودخول مروان دمشق وفرار سليمان منها بعد أن انتهب جميع مافي بيت المال وكان من المتوقع أن ينقضّ مروان على رأس سليمان بعد هذا الانتصار ، ولكنه لم يفعل ، بل آمّن سليمان كما أمّن ابراهيم ابن الوليد ، وكان شديدالإكرام لهما يدنيهما من مجلسه ، وكانا يجلسان معه على غدائه وعشائه ، بل وكانا معه في أثناء توجهه للقضاء على فتنة حمص[٢] .. إلا أن سليمان لم ترق له هذه المعاملة الطيبة بل شقّ عصا الطاعة وتمرد ..

وكان مروان قد أعدّ جيشاً قوامه عشرة آلاف جندي لغـزو العراق ، والقضاء على حركة الضحاك بن قيس الشيباني الخارجي ، إلا أنهم لم يكادوا يحلّون الرصافة حتى دعوا سليمان إلى خلع مروان[٣] . وكان سليمان يستجم بالرصافة بعد أن أذن له مروان بتفقد أراضيه وأهله ..

خلع سليمانُ مروان سنة ١٢٧ هـ . واجتمع إليه حوالي سبعين ألفاً مـن الجند[٤] ، وجرت بـين الجيشين معركة طاحنة في قرية لبني زفـر في أراضي قنسرين[٥] انتهت بهزيمة سليمان ، وقتل ثلاثون ألفاً من جنده[٦] ، واتجه سليمان نحو حمص وتحصن بها ، فتبعه مروان وحاصر حمص قرابة عشرة أشهر حتى تمكن من هدم سورها وفتحها[٧] ..

ثم إن سليمان هرب بعد ذلك إلى العراق ، واتفق مع واليه من قبل مروان

(١) انظر ما سبق ص ٢٦-٢٧ .

(٢) الطبري ٦٠٨/٥ .

(٣) ابن خلدون ٢٤٥/٣ الكامل ٢٨٧/٤ .

(٤) الكامل ٢٨٧/٤ .

(٥) الكامل ٢٨٧/٤ اليعقوبي ٣٣٩/٢ وهي موقعة خساف .

(٦) الكامل ٢٨٧/٤ أبو الفدا ٢٠٨/١ .

(٧) تفصيل هذه المعارك انظر : الطبري ٦١٧/٥ الكامل ٢٨٨/٤ أبو الفدا ٢٠٨/١ ولهاوزن ٣٠٢ - ٣٠٥ .

عبد الله بن عمر بن عبد العزيز على مبايعة الضحاك بن قيس الخارجي[1] ، وعندما انهزمت جحافل الضحاك التجأ سليمان إلى أبي مسلم الخراساني وبايعه على طاعة أبي العباس[2] ، فسيّره هذا مدداً إلى قحطبة بن شبيب الذي خاض المعارك مع مروان ، وبدخول سليمان في عسكر قحطبة حلت الهزيمة بمروان[3] ..

اشترك سليمان مع جيش بني العباس في معركة الزاب[4] ، وشاهد الهزيمة وهي تحلّ بآل بيته وهو الذي تولى ملاحقة فلول المنهزمين[5] .

وأخيراً ، وبعد فوات الوقت علم بنية بني العباس المبيّتة لقتله،فهرب إلى الجزيرة ، وأرسل أبو العباس بعثين تمكن بعدهما من أسر سليمان وولده ، فصلبهما على باب دار الإمارة بالكوفة[6] .

وفي رواية أخرى أن سليمان فرّ بأهله ومواليه إلى السند ، ثم عندما بويع السفاح بالخلافة بايعه سليمان ، وقدم عليه ، فأكرمه ، وسمح له بتقبيل يده ، إلا أن هذا التصرف من السفاح لم يعجب مولاه سديف الشاعر ، فارتجل شعراً قُتل إثره سليمان[7] .

* * *

ومن المؤسف أن نجد سليمان يتصرف هذا التصرف ونحن نعرف له المواقف الرائعة في حرب الروم[8] ..

* * *

---

(1) الطبري ٥/٦٢٠ الكامل ٤/٢٨٨ ابن خلدون ٣/٢٤٦ .
(2) الامامة والسياسة ٢-٢٢٧ .
(3) المرجع السابق نفسه .
(4) المرجع السابق الصحيفة ذاتها .
(5) الامامة والسياسة ٢/٢٣٥-٢٣٦ .
(6) الامامة والسياسة ٢/٢٣٥-٣٦ .
(7) الكامل ٤/٢٩٩ .
(8) الطبري ٥/٢١٣ .

الخوارج

كل تاريخهم حركة ، وكل حياتهم نشاط . سيفهم لا يكاد يعرف الغمد ، وجسدهم لا يكاد يدرك البرء من الجراح ، واحدهم يعرف مصيره . إما جريح أو مجندل ، وقد وطّد نفسه على ذلك ..

لقد أتوا بالأعاجيب ، وضربوا أروع الأمثال شجاعة ورجولة وإقداماً .. حسبهم أنهم سباع العرب كما قال المهلب بن أبي صفرة .. وهم كما وصف سباع العرب ، وما أكثر السباع عند العرب إذا أرادوا .

بدأت حركتهم منذ التحكيم بين علي ومعاوية رضي الله عنهما ، وأخذت بالنماء والقوة طيلة العهد الأموي ، ثم دبّ فيهم الضعف والتمزق .. تاريخهم في العهد الأموي تاريخ مجيد لا يكاد خليفة يخلو عصره من ثورة لهم وربما أكثر من ثورة .. وكانت لهم إلى جانب ذلك آراء ونظريات دينية وسياسية(١).

وفي عصر مروان هذا الذي نتحدث عنه تحرك الخوارج ، ثاروا ، وسيطروا على معظم العراق ، وأصبحوا خطراً حقيقياً على الدولة ..

والآن لنذكر أبرز حوادثهم ..

* * *

حركة الضحاك :

سنة سبع وعشرين ومئة للهجرة ، استغل الضحاك بن قيس الشيباني الفتن القائمة في العراق بتأثير العصبية القبلية ، فخرج يشق عصا الطاعة ..

كان النضر بن سعيد الحرشي في الكوفة ، ومعه المضرية ، وكان عبد الله بن عمر بن عبد العزيز بالحيرة ومعه اليمانية ، والحرب بينهما مستعرة والبأس

---

(١) تفصيل مبادئهم جاء في الشهرستاني ١٧٠-٢٢٢ فليرجع اليه من شاء التوسع .

شديد[1] .. في هذا الجو قدم الضحاك إلى الكوفة ، ومعه ثلاثة آلاف مقاتل، فاتحدت كلمة النضر وعبد الله على حرب الضحاك[2] عدوهما المشترك . والتقى الجميع فدارت الدائرة على النضر وعبد الله ، واستولى الضحاك على الكوفة والحيرة[3] ، وفر عبد الله إلى واسط ، وبإيحاء من منصور بن جمهور ، خان ابن عمر خليفته ، وبايع الضحاك ، وكان ذلك في أواخر شوال سنة ١٢٧هـ[4] بينما عاد النضر بن سعيد إلى الخليفة بمن معه[5] .

كان ثمن خيانة عبد الله بن عمر أن يكون للضحاك الكوفة وسوادها ، ولابن عمر ما بيده من كسكر وميسان ودستميسان وكور دجلة والأهواز وفارس[6]، وجميعها كما نرى تشكل رقعة واسعة كان يستطيع أن يقاوم الضحاك بها لو كان جاداً ، ولولا خيانة صدرت منه ..

استمرت المعارك بين جند الضحاك وجند الخليفة . ووجد الخليفة أنه لابد من تعيين والٍ جديد للعراق ، فعهد إلى يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري ، وضم إليه جيش الجزيرة[7] . واستعد مروان للشخوص بنفسه لحرب الخوارج لاستفحال أمرهم،وكانت معركة كفرتوثا[8] حامية الوطيس بين الخليفة والضحاك. كانت معركة رهيبة لعبت فيها خيول مروان دوراً ، فسيطر على المعركة التي انتهت بقتل الضحاك سنة ١٢٨هـ[9] . وقطع مروان رأس الضحاك ، وأرسله من فوره إلى مدن الجزيرة[10] .

---

(١) الطبري ٦١١/٥ .
(٢) الطبري ٦١١/٥ الكامل ٢٨٩/٤ .
(٣) الطبري ٦١٥/٥ .
(٤) الطبري ٦٢٠/٥ .
(٥) الطبري ٦٢٠/٥ .
(٦) الطبري ٦٢٠/٥ .
(٧) المرجع السابق .
(٨) كفر توثا : بضم التاء المثناة من فوقها وسكون الواو وتاء مثلثة . قرية كبيرة من اعمال الجزيرة . الكامل ٣٧٤/٢ .
(٩) تفصيل هذه المعارك يرجع اليها من شاء في الطبري ١٥/٦ وما بعدها شذرات ١٧٤/١ حوادث سنة ١٢٨ . الكامل ٢٩٦/٤ . اما اليعقوبي فذكر ان قتل الضحاك كانسنة ١٢٧ (٣٣٩/٢) .
(١٠) الطبري ١٦/٦ الكامل ٢٩٦/٤ .

وهكذا انتهى الضحاك بعد أن سيطر على الكوفة والموصل[١] ، وامتدت سيطرته حتى استطاع حصار نصيبين ، وكان عليها عبد الله بن مروان ابن الخليفة، كما استطاع أن يحاصر الرقة[٢] . وينفذ إلى حران[٣] .

* * *

حركة الخيبري سنة ١٢٨ هـ :

كان سعيد بن بهدل الخيبري أول من خرج في الجزيرة من الخوارج إثر مقتل الوليد واشتغال مروان بالشام . وكان خروجه سنة ١٢٧ هـ في أراضي قرية كفر توثا[٤] . وعندما قتل الضحاك بايع الخوارج الخيبري[٥] ، فاستعد هذا لقتال مروان ، وكان من جنوده وفي صفه سليمان بن هشام في أكثر من ثلاثة آلاف من أهل بيته ومواليه ، وكان تزوج أخت شيبان الخارجي الذي آل إليه أمر الخوارج بعد قتل الخيبري[٦] . ودارت المعركة بين مروان والخيبري ، وتمكن الأخير من تركيز ضربته في قلب جيش الخليفة فهرب الخليفة ، وتمكن الخيبري من دخول فسطاط مروان والجلوس على فراشه ، ثم أحدق به جند الخليفة فقتلوه في حجرة مروان حيث كان جالساً .

كانت هذه الحادثة هي التي لفتت نظر مروان إلى طريقة جديدة في القتال فأبطل قتال الصف وجعل جنوده كراديس[٧] .

* * *

حركة شيبان الخارجي سنة ١٢٩ هـ :

ولّى الخوارج بعد مقتل الخيبري عليهم شيبان بن عبد العزيز اليشكري

(١) جرى دخول الموصل بدعوة من أهلها . الطبري ٦/١٥ .
(٢) الطبري ٦/١٥ الكامل ٤/٢٩٦ .
(٣) اليعقوبي ٢/٢٣٨-٣٣٩ .
(٤) الطبري ٥/٦١١ الكامل ٤/٢٨٩ .
(٥) الطبري ٦/١٦ الكامل ٤/١٩٦ .
(٦) الطبري ٦/١٧ الكامل ٤/٢٩٦ اليعقوبي/٣٣٩ .
(٧) الطبري ٦/١٧ الكامل ٤/٢٩٦ .

أبا الذلفاء ، وبايعوه ، فقاتلهم مروان قتالاً شديداً . ولما وجد هؤلاء الخوارج أن لا قبل لهم بمروان وجنوده قبلوا اقتراحاً من سليمان بن هشام بالانسحاب إلى الموصل وإقامة خندق حولها[1] .. وهكذا فعلوا ، فلحقهم مروان ، وحاصر الموصل ، ودام الحصار تسعة أشهر كان يقاتلهم بكرة وعشية[2] . وقد زعم بعض المؤرخين أن مروان نازل شيبان عشرة أشهر كان في كل يوم يقاتلهم ويكسرونه [3] وبنتيجة هذه المعارك ترك الخوارج الموصل وهربوا إلى خراسان ، فأمر مروان قائده عامر بن ضبارة بملاحقتهم إلى أن تمكن عامر من قتل شيبان[4].

وبهذه النتيجة انتهت حركة الخوارج في العراق وقضي عليها . وكان من المتوقع أن يُقضى على الخوارج نهائياً لولا أن حركة لخارجي جديد نشبت في الحجاز ، تلك هي :

* * *

حـركة أبي حمزة الخارجي :

هو المختار بن عوف الأزدي السليمي من البصرة ، وكان يأتي إلى مكة في موسم الحج ، فيدعو الناس إلى خلاف مروان بن محمد حتى إذا التقى بعبد الله ابن يحيى[5] في أواخر سنة ١٢٨ هـ تم الاتفاق بينهما على العمل ، فانطلقا إلى حضرموت ، وهناك جرت البيعة لعبد الله بن يحيى بالخلافة[6] .

قدم أبو حمزة إلى مكة سنة ١٢٩ داعياً إلى بيعة عبد الله بن يحيى (طالب

---

(١) الطبري ٦/١٨ .

(٢) الطبري ٦/١٩ . برواية هشام ان الحصار دام تسعة اشهر . وبرواية أبي هاشم أن الحصار كان ستة أشهر . أما اليعقوبي (٢/٣٣٩) فجعل الحصار شهراً واحداً فقط .

(٣) شذرات ١/١٧٤ .

(٤) برواية أبي عبيدة عند الطبري ان جلندي بن مسعود الازدي قتل شيبان سنة ١٢٩ . وبرواية أبي مخنف أن شيبان قد هلك سنة ١٣٠ في سجستان (٦/٢٢) . وعند اليعقوبي مايؤيد رواية أبي عبيدة (٢/٣٣٩) . وعند أحد المؤرخين أن شيبان قد رحل نحو شهرزور ، ثم الى كرمان ، ثم الى البحرين وقتل هناك (شذرات ١/١٧٤) ...

(٥) في ترجمة عبد الله بن يحيى ومبادئه : انظر ـ اذا رغبت ـ سيد امير علي ١٤٨ وولاة مصر ص ١١٤ .

(٦) الطبري ٦/١٨ الكامل ٤/٣٠٧ .

الحق) . وتمكن من إبعاد أمير الحج وأمير المدينة عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك[1] . ولم يأت عام ١٣٠ هـ حتى كان أبو حمزة يحتل المدينة ، ويطرد أميرها ، وذلك بعد معركة جرت في ٧ صفر سنة ١٣٠ قتل فيها جند المدينة [2]

إزاء هذا الخطر أرسل مروان من الشام قائداً من قواده هو محمد بن عطية على رأس جيش قوامه أربعة آلاف جندي لقتال أبي حمزة ، حتى إذا انتصر تابع زحفه لقتال عبد الله في اليمن[3] . وفي موقع العلا ظاهر المدينة جرت معركة بين جيش الخليفة والخوارج دارت الدائرة فيها على الخوارج[4] ، فانهزموا إلى المدينة ، فتلقفهم أهلها وقتلوهم[5] .

تابع ابن عطية سيره حتى فتح مكة بعد معركة طاحنة انتهت بقتل أبي حمزة ، ومن معه[6] ، ثم انحدر إلى الجنوب للقاء عبد الله بن يحيى ، فالتقيا بظاهر صنعاء بمعركة حاسمة قتل فيها ابن يحيى[7] ودخل ابن عطية صنعاء وبعث برأس عبد الله بن يحيى إلى مروان[8] . وإلى عبد الله هذا تنتمي الفرقة الإباضية[9].

* * *

---

(١) الطبري ٦/٤١ الكامل ٤/٣٠٧ تاريخ الاسلام ٥/٣٦ .

(٢) الكامل ٤/٣١٤ وسميت الموقعة وقعة قديد .

(٣) الطبري ٦/٦٠ الكامل ٤/٣١٥ .

(٤) الطبري ٦/١٦ لكامل ٤/٣١٥ .

(٥) الطبري ٦/٦٣ لكامل ٤/٣٥١ .

(٦) وفي رثاء أبي حمزة قال عمرو بن الحصين العنبري مرثية تعد من مختار الشعر العربي ، ومطلعها :

هبت قبيل تبلج الفجر ... هند تقول ودمعها يجري

وقد رواها بكاملها ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة (١/٤٦١) الطبعة الثالثة ـ دار الفكر للجميع ـ بيروت سنة ١٣٨٨ هـ .

(٧) الطبري ٦/٦١ كانت المعركة ببلدة تبالة من تهامة بطريق اليمن . انظر ايضا الملل والنحل ٢١٢ الكامل ٤/٣١٦ .

(٨) الطبري ٦/٦١ الكامل ٤/٣١٦ .

(٩) الملل والنحل ٢١٢ .

آل البيت

قامت لآل البيت في عصر مروان حركتان فشلت الأولى وتمكنت الثانية من القضاء على الدولة الأموية ...

حركة عبد الله بن معاوية :

في شهر المحرم سنة ١٢٧ هـ ظهر عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب في الكوفة ، وواليها حينذاك عبد الله بن عمر[١] . وقد دعا ابن معاوية إلى نفسه عندما وجد العصبية قد اشتدت في العراق[٢] . ونحن نعلم حال الكوفة منذ أول الدولة الأموية حتى نهاية عهدها ، فهي مركز لكل ثورة في العراق[٣].

وعندما أصبحت لعبد الله شوكة وقوة قام عبد الله بن عمر والي العراق بقتاله ، وجرت بين الفريقين معركة انتهت بهزيمة ابن معاوية[٤] ، وفراره خارج العراق ، وتمركز في جبال خراسان ، وفرض سيطرته على أصبهان ، والري ، وما جاورها[٥] . ثم اتجه إلى اصطخر فأتاه الناس من بني هاشم وغيرهم[٦] . ولعل من أبرز الأشخاص الذين كانوا تحت لوائه سليمان بن هشام ابن عبد الملك الأموي وشيبان بن الحلس الخارجي وأبو جعفر المنصور وعبد الله ابن علي وشقيقه عيسى بن علي العباسيان[٧].

وبعد أن ولي يزيد بن عمر بن هبيرة العراق لمروان وجه نباتة بن حنظلة

(١) الطبري ٥/٥٩٩ الملل والنحل ٢١٢ .
(٢) الطبري ٥/٥٩٩ الكامل ٤/٢٨٤ .
(٣) انظر في سبب موقف العراق المعادي للدولة الاموية ــ الدوري ٧٤ــ٧٥ .
(٤) الطبري ٥/٦٠٤ .
(٥) الطبري ٦/٣٨ الكامل ٤/٢٨٥ الفخري ٩٧ .
(٦) الفخري ٩٧ ابن خلدون ٣/٣٦٠ .
(٧) الطبري ٦/٣٩ الكامل ٤/٣٠٦ .

الكلابي لقتال عبد الله بن معاوية [1] وأردفه بعامر بن ضبارة الذي أرسله مروان لمطاردة شيبان الخارجي كما مر معنا آنفا [2] .

كان لعبد الله بن معاوية مبادىء غريبة منها قوله بتناسخ الأرواح وبأن الثواب والعقاب في هذا التناسخ . ووصل به الحد إلى القول بأن روح الله تناسخت حتى وصلت إليه ، وادعى النبوة والألوهية معاً ، وأنه يعلم الغيب . فعبدته شيعته . وكفروا بالقيامة لاعتقادهم أن التناسخ يكون في الدنيا . وعنه نشأت الخرمية والمزدكية في العراق .

وحين هلك عبد الله في خراسان افترق أصحابه شيعاً . فمنهم من قال إنه لم يزل حياً . ومنهم من قال بتحول روحه إلى إسحاق بن زيد بن الحارث الأنصاري . وهم فرقة الحارثية الذين يبيحون المحرمات ويعيشون عيش من لا تكليف عليه [3]

وما أظن إلا أن عقيدة كهذه لابد أن تجد قبولاً حسناً لدى الناس في منطقة حديثة العهد بالإسلام ، ولم ينتشر فيها الإيمان بصورة واسعة . وهي فضلاً عن ذلك ذات ماضٍ ديني عريق .. وهذا ما يعلل لنا كيف بسط عبد الله سيطرته على تلك الرقعة الواسعة من الأرض .

* * *

(١) الطبري ٦/٣٩ .
(٢) انظر ما سبق ص ٤٣ .
(٣) الملل والنحل ٢٤٤–٢٤٥ .

الحركة العباسية

مقـــدمة :

إن عاطفة الانسان تجاه أمر من الأمور هي الحافز الأول الذي يجذبه نحو العمل لتحقيق ذلك الأمر • ولو جُرد البشر من تلك العاطفة لفقدوا الصفة الانسانية لديهم ، واقتربوا أكثر فأكثر من الآلية الصماء • بيد أن هذه العاطفة ليست سوى فورة نفسية سرعان ما تخبو ويضيع العمل هباء إذا لم يصحب تلك العاطفة عقل" ، منظم ، واعٍ ، يعرف المقدمات والأسباب ، ويحدد النتائج••

تلكم هي المزية المشتركة التي انطبعت بها حركات آل البيت وشيعتهم منذ أول خطوة حتى الحركة العباسية ••

فقد عرفنا كيف أن شيعة علي كرم الله وجهه خذلوه وتولوا عنه وهم معرضون عندما كان قاب قوسين أو أدنى من النصر مأخوذين بحركة تمثيلية كشف لهم الإمام حقيقتها ، وعرّفها لهم ، إلا أنهم أعرضوا عنه•

والحسين بن علي ، الشهيد ابن الشهيد ، اندفع اندفاعاً عاطفياً نحو العراق رغم أن عقلاء أسرته وأصحابه نصحوه ، وبيّنوا له كيف أن أهل العراق خذلوا أباه ، فأصر على رأيه في حين كان عليه أن يدرك أنه ذاهب" لتزعّم ثورة ، والمطالبة بعرش مغتصب • كان عليه أن يعدّ للأمر عدّته بما يناسبه لا أن يجر صبية ونساء من آل بيته الأطهار • ولكن العاطفة هي وحدها التي دفعته إلى ما قام به مما أدى إلى سهولة القضاء على حركته ، وخلف في النفوس لوعة وحسرة على المصير المحتوم الذي لاقاه وأهله •

وانتقلت هذه العاطفة إلى الناس • ولنترك أحداً من آل البيت سيلعب دوراً

هاماً فيما بعد يصف لنا الناس وعاطفتهم تجاه أهل البيت ، أو قل يصف أهل العراق ، لأن آل البيت لم يجدوا تربة لنشر آرائهم أخصب من العراق . وربما كان من الجائز القول أن أهل العراق هم الذين وجدوا في آل البيت متنفساً لهم مما هم فيه .

يقول داود بن علي لابن عمه زيد بن علي[1] بعد أن سمع أن أهل الكوفة بايعوه ، وهم أربعون ألفاً ، وأقسموا له أغلظ الأيمان على النصرة والفداء : « يا ابن عم : إن هؤلاء يغرونك من نفسك . أليس قد خذلوا من كان أعز عليهم منا جدك علي بن أبي طالب حتى قتل ، والحسين من بعده بايعوه، ثم وثبوا عليه، فانتزعوا رداءه من عنقه ، وانتهبوا فسطاطه ، وجرحوه . أوليس قد أخرجوا جدك الحسين ، وحلفوا له بأوكد الأيمان ، ثم خذلوه ، وأسلموه ، ثم لم يرضوا بذلك حتى قتلوه »[2] .

ولهذا القول المشكك بالناس اهمية في رأينا . لأننا سنجد كيف أن بني العباس يستغلون عاطفة الناس تجاه أهل البيت ، وهم في الوقت نفسه يمسكون الأمر بيد من حديد ، وفكر ثاقب ، ونظام دقيق .. كل هذا سهل لهم سبيل الظفر .

* * *

يمكن أن نذكر كلمة عامة تَسمُ الحركة العباسية بكل مظاهرها فنقول : التنظيم في كل شيء .. وهذا هو سر نجاحها ، فهي قد عرفت أين تضع قدمها ، وكيف تحركها ، ومتى تحركها ، والى أين .. وحركة هذا شأنها لا بد أن تنجح .

* * *

البيئـــة :

اختار بنو العباس مركزاً لنشاطهم بلاد خراسان . وكانت هذه البلاد تتألف من أربع مناطق : مرو ، هراة ، بلخ ، نيسابور ... وسبب الاختيار يعود إلى أن خراسان أصلح من أي قطر آخر لمثل هذه الحركة المعادية للدولة ..

---

(١) وإليه تنسب طائفة الزيدية .. انظر ـاذا شئت ـ الشهرستاني ٢٤٩ فوات الوفيات ١/١٦٥ .
(٢) الطبري ٥/٤٨٨ .

وذلك لأن « أهل الحجاز قليلون وأهل الكوفة والبصرة كان أهل البيت مذعورين منهم لما جرى منهم على أمير المؤمنين علي ، والحسن، والحسين من الغدر والخذلان وسفك الدم . وأما أهل الشام ومصر فهواهم في بني أمية ، وحب بني أمية قد رسخ في قلوبهم ، فلم يبق لهم ـ أي لبني العباس ـ من يسكنون إليه من الأمصار إلا أهل خراسان »(١) .

هذا هو الوضع الاجتماعي في الدولة الأموية . ومنه يتبين كيف أن أفضل بيئة ، إن لم تكن الوحيدة ، للدعوة العباسية هي بيئة خراسان .

ولقد ساعد على ذلك بُعد خراسان عن مركز الدولة بدمشق بُعداً نشأ عنه بعض المتاعب الادارية للولاة وللخليفة ، ولم يكن له من علاج إلا ضم خراسان للعــــراق .

كتب عاصم بن عبد الله بن يزيد الهلالي للخليفة هشام بن عبد الملك يقــول « أما بعد : يا أمير المؤمنين فإن الرائد لا يكذب أهله . وقد كان من أمر أمير المؤمنين إلي ما يحق به عليّ نصيحته . وإن خراسان لا تصلح إلا أن تُضمّ إلى صاحب العراق ، فتكون موادها ، ومنافعها ومعونتها في الأحداث والنــوائب من قريب لتباعد أمير المؤمنين عنها ، وتباطؤ غياثه عنها »(٢) .

إذاً بُعد خراسان ، وحالة المجتمع فيها جعل منها بيئة مناسبة لقيام الدعوة العباسيــة ...

أما العامل المادي المتمثل بنأي خراسان فقد أوضحناه .

وأما المجتمع في خراسان فكان مؤلفاً من طبقتين بارزتين : طبقة الفاتحين ، وطبقة أهل البلاد ..

أما طبقة الفاتحين ، فهي من العرب الأقحاح هاجروا مع الفتح ، ومنذ الأيام

---

(١) الفخري ١٠١ـ١٠٢ .

(٢) الطبري ٤٣٢/٥ ابن خلدون ١٩٨/٢ .

الأولى للدولة الأموية،سكن هؤلاء خراسان ، وما وراء النهر ، واندمجوا بالفرس إلى حد بعيد ، فتزوجوا بالفارسيات،وارتدوا السراويل وشربوا الخمور واحتفلوا بعيدي النيروز والمهرجان (عيد الربيع وعيد الخريف).وتعلموا الفارسية وتكلموا بها[1] . مما أدى إلى ضياع بعض الأصالة العربية • وفوق كل ذلك لم يستطع العرب في هذا المجتمع الجديد أن يتخلصوا من العصبية القبلية التي حملوها معهم، وهي على غاية من الخطورة لأنها تأتي على بقية الشوكة العربية ، وقد أدت إلى هـذا فعلاً •

ومما ساعد على إذكاء روح العصبية تصرف الولاة • فهـذا هشام بن عبد الملك يعزل خالد بن عبد الله القسري من خراسان ويصرف أخاه أسداً عنها، لأنه تعصب وأفسد الناس[2] واحتقرهم • خطب مرة في أهل بلخ فقال : يا أهل بلخ لقبتموني بالزاغ ، والله لأزيّغنّ قلوبكم »[3] •

وهذا نصر ن سيار ، وهو على ما نعرف من حنكة ودراية وسياسة ، لما ولي خراسان لم يوظف في خراسان إلا مضرياً[4] • كأن الدولة لمضر فحسب •

كان من جراء ذلك أن تأججت نيران العصبية القبلية بين المضرية واليمانية، وبلغت أوجها في أحرج وقت •• كانت المعارك قائمة بين جديع بن علي الكرماني، وكان سيد من بأرض خراسان من اليمانية ، وبين والي خراسان نصر بن سيار الذي كان يتعصب لمضر في الوقت الذي كان فيه تيار الدعوة العباسية يتدفق من خراسان[5] • وحين استولى الكرماني على مرو قام بهدم دور المضرية فيها[6] •

ويظهر أن نصر بن سيار تنبه إلى الأثر السيء للعصبية في خراسان فقـال عنه : إن فيه لهلاككم معشر العرب »[7] •

(١) الطبري ٥/٣٩٢ ابن خلدون ٣/١٨٦ •
(٢) ولهاوزن ــ النسخة الانكليزية ص ٣٠٧ نقلا عن نكلسن ص ١٨ •
(٣) الطبري ٥/٣٩٤ •
(٤) ابن خلدون ٣/٢٠٧ •
(٥) الطبري ٥/٥٨٤ وما بعدها و ٦/٣٥ وما بعدها • الاخبار الطوال ٣٣٤ـ٣٣٥ •
(٦) ابن خلدون ٣/٢٥٠ الخضري : الدولة العباسية ٢٣ •
(٧) من خطبة له بأهل خراسان • الطبري ٥/٥٨٥ •

هذه هي حال الطبقة الأولى في خراسان .. فما هي حال الطبقة الثانية ؟..

كانت الطبقة الثانية في المجتمع الخراساني ، طبقة أهل البلاد ، أميل لكل من يثور على الدولة الأموية ، من قبيل الثأر للنفس المكلومة .. فهي ذات تاريخ مجيد ، وصاحبة ملك وطيد[1] زحزحه العرب وأبادوه .. دخل إليها الخوارج فوجدوا كل تجاوب وتأييد ..

وأتاها أهل البيت فوجدوا من الناس كل ترحيب ونصرة ، لا حباً بهم ، وإنما للثأر من الدولة الأموية تحت ستار حب آل البيت ورايتهم[2].

وقد علل المستشرق أرنولد في كتابه « الدعوة إلى الاسلام » سبب تعلق الفرس بآل البيت وعزاه إلى زواج الحسين بن علي من إحدى بنات يزدجرد آخر ملوك الأسرة الساسانية . وقد رأى الفرس في أولاد الحسين منها وارثين لملوكهم الأقدمين ، كما رأوا فيهم ورثة لتقاليدهم القومية[3] .

* * *

ومما زاد في اعتبار خراسان مرتعاً خصيباً لأعداء الدولة الأموية عدم انتشار العرب ، وعدم نشر الاسلام .

أما عدم انتشار العرب فيعود لانكماشهم في مجموعات صغيرة مبعثره[4] وانشغالهم بحزازات القبلية ..

أما بالنسبة للاسلام ، فان ولاة خراسان لم يقوموا بالدعوة إليه ، ولم يستغلوا نفوذهم السياسي لنشره[5] ، ولم يطبقوا تعاليمه بدقة . فنرى أحد ولاة خراسان يفرض الجزية على أهل الصغد رغم إسلامهم وبنائهم للمساجد[6] ، فكانت لهم حركات وثورات دامت فترة طويلة

(١) الخضري : الدولة العباسية ١٦ .
(٢) احمد امين : فجر الاسلام ٢٧٦-٢٧٧ .
(٣) تاريخ العراق ١٥ . الخضري : الدولة العباسية ١٦ .
(٤) شاكر مصطفى ٦/١ .
(٥) شاكر مصطفى ٦/١ شكري فيصل ٢٠٩ .
(٦) ابن خلدون ١٨٧/٣ .

إلى أن جاء نصر بن سيار فوضع الجزية عنهم،وعن كل من أسلم من أهل الذمة[1] .

* * *

كل هذا ساعد على انتشار المذاهب المنافية للاسلام في خراسان ، كمذهب عبد الله بن معاوية الذي ذكرناه فيما سبق [2] .

ومما زاد في تقبل المجتمع الخراساني لتلك المذاهب أن انتشار الاسلام فيه كان يتمثل في حركة فردية تتناول جماعات صغيرة[3] . وبالمقابل كانت الديانة الزرادشتية ، وعلى الأخص في مظهرها الحديث المتمثل بالمانوية ، دين الأكثرية ، وإلى جانبها كانت المزدكية أيضاً[4] .

* * *

تلك هي بيئة خراسان على ماوصفنا . بيد أنه يجب علينا أن لا نغفل الإصلاحات الهامة التي قام بها في خراسان واليها نصر بن سيار حتى أنها « عمرت عمارة لم تعمر مثلها ، وأحسن ـ نصر ـ الولاية والجباية »[5] .. ولكن هذه الاصلاحات لم تغير شيئاً من نفسية المجتمع الخراساني « حيث كان يكثر الغلاة، وأتباع بقايا الحركات الاجتماعية الفارسية »[6] .

وسط هذا المجتمع ترعرعت الدعوة العباسية ..

* * *

التنظيـــم

في سنة مئة للهجرة وجه محمد بن علي بن عبد الله بن عباس من أرض الشراة بعض الرسل ، اثني عشر نقيباً ، يجـوبون البلاد ، ويدعون له ، ولأهل بيته [7] وتوالت الرسل إلى خراسان في عامي ١٠٧ و ١٠٨هـ [8] .

---

(١) ابن خلدون ٣/٢٠٧ .
(٢) ص ٤٥ـ٤٦ من هذا الكتاب .
(٣) شكري فيصل ٢٠٩ .
(٤) شاكر مصطفى ١/٦ .
(٥) ابن خلدون ٣/٢٠٧ الخراج ٢٤٢ـ٢٤٣ .
(٦) الدوري ٨٠ ـ ٨١ .
(٧) الطبري ٥/٣١٦ .
(٨) الطبري ٥/٣٨٧ـ٣٨٩ .

وكانوا يذهبون فرادى حتى تشكلت منهم جماعة ظهر أثرها سنة ١١٤ هـ[١]، وزاد أثرها بعد ثلاث سنوات[٢] . إلى أن ظهرت لهم شوكة ، ودعوا إلى حمل السلاح ، وتجمعوا حول مرو سنة ١١٨ بقيادة عمار بن يزيد الذي عينه بكير ابن ماهان والياً على شيعة بني العباس في خراسان ، وستر نفسه باسم خداش[٣].

* * *

لم يترك آل البيت مناسبة تفوت إلا ونالوا من الدولة الأموية ، ودعوا إلى أنفسهم ، حتى أن بعض الأشخاص الخراسانيين أتوا إلى محمد بن علي يهنئونه بولادة ولده أبي العباس عبد الله ، فأخرجه لهم في خرقة ، وقال لهم : والله ليتمّن هذا الأمر ، حتى تدركوا ثأركم من عدوكم »[٤] فمن العدو ؟. الدولة الأموية بلا شك ..

وتولى نشاط الحركة بسرية تامة رغم تعرض بعض الدعاة في خراسان للقتل والنكال .. وكان قطب الرحى في هذه الحركة محمد بن علي .. وكانت تصله الكتب ، والوفود عن نشاط دعوته[٥]. .. أما في خراسان فقد تولى الدعوة شاب شديد الحماسة والاندفاع ،هو أبو مسلم الخراساني[٦] .

وبتولي أبي مسلم للحركة ينتهي الطور الأول من الدعوة التي لم تتعدّ الأفراد إلى طور الصدام المسلح مع الدولة ، ثم الإجهاز عليها..

---

(١) الطبري ٥/٤٢٥ .

(٢) الطبري ٥/٤٣٩ .

(٣) الطبري ٥/٤٤٠ .

(٤) ولد أبو العباس في شهر ربيع الآخر سنة ١٠٤ هـ . الطبري ٥/٣٦٨ .

(٥) الطبري ٥/٤٦٧ حوادث سنة ١٢٠ هـ .

(٦) الطبري ٥/٥١٢ حوادث سنة ١٢٤ هـ . نفس المرجع ص ٣٥ .

احتلال خراسان :

ذكرنا فيما سبق(١) كيف أن العصبية القبلية كانت على أشدها في خراسان. وما على أبي مسلم وقد أصبح له أمر الإشراف على الحركة في تلك البلاد(٢) إلا أن يستغل هذه العورة ، وينفخ فيها .

دخل أبو مسلم مرو في أول رمضان سنة ١٢٩(٣) ، وأمر الدعاة بالدعوة إلى طاعة بني العباس(٤) دون ذكر شخص معيّن . وقد دخلها في وقت كان فيه جديع الكرماني وشيبان الخارجي يقاتلان نصر بن سيار(٥) .. خرج أبو مسلم من مرو مستعداً للقتال(٦) .. وعندما شعرت قبائل العرب المتقاتلة بالخطر المحدق بها اتحدت كلمتها على قتال أبي مسلم(٧) .. بيد أن هذه المحالفة السطحية لم تخف على أبي مسلم ، ولم تكن لتؤثر في موقفه . فهو يعرفها ضحلة هزيلة ، لأنها تخفي في الصدور أحقاداً تعود إلى سنوات وسنوات ، ومن ثمّ عاد يؤجج العصبية القبلية من جديد ، ويذكر كل قبيلة بثاراتها من القبيلة الأخرى(٨) حتى انفرط عقد التحالف ، وانتثرت القبائل ، وعادت إلى الصراع المرير..

* * *

أرسل نصر بن سيار إلى الخليفة يخبره بحال خراسان ، وخطورة الحركة، وكثرة أصحاب أبي مسلم(٩) ، إلا أن جواب الخليفة كان تكليف نصر بأن يحل الأمر بمعرفته(١٠) . ولم يجد نصر مرجعاً يرجع إليه بعد الخليفة إلا والي العراق

---

(١) ص ٤٩-٥٠ من هذا الكتاب .

(٢) الطبري ٢٢/٦ . كان ابراهيم بن محمد قد كلف سنة ١٢٩ ابا مسلم باظهار الدعوة بخراسان

(٣) الطبري ٢٤/٦ .

(٤) الطبري ٢٤/٦ الكامل ٣٠٠/٤ .

(٥) الطبري ٢٤/٦ ابن خلدون ٢٦٢/٣ .

(٦) الطبري ٤٤/٦ ابن خلدون ٢٦٢/٣ .

(٧) الطبري ٤٤/٦ الكامل ٣٠٤/٤ ابن خلدون ٢٥٩/٣ .

(٨) الطبري ٤٤/٦ الكامل ٣٠٥/٤ ابن خلدون ٣٦٢/٣ و ٢٥٥-٢٥٦ .

(٩) الطبري ٣٦/٦ الكامل ٣٠٢/٤ المسعودي ٢٥٨/٣ .
ابن عساكر ١٩٥/١٦ (٢) . وفي هذا الكتاب قصيدة مشهورة مطلعها :
اقول من التعجب ليت شعري   الايقاظ امية ام نيام

(١٠) الطبري ٣٧/٦ الكامل ٣٠٣/٤ .

يزيد بن عمر بن هبيرة ، فكتب إليه يخبره بحال خراسان ، ويستنجده ، فكان الجواب لا يختلف عن جواب الخليفة[1] • كل هذا حدث سنة ١٢٩ هـ[2] •

وفي غمرة هذه الأحداث تمكن نصر من معرفة الشخص الذي يُدعى إليه فأرسل إلى مروان باسمه ، فإذا هو ابراهيم بن محمد[3] ، وهو نازل في الحميمة من أراضي الأردن ، ومن هناك اعتقل ، وأودع السجن سنة ١٢٩ هـ[4] حتى قتل سنة ١٣٢ هـ[5] •

---

(١) الطبري ٣٧/٦ الكامل ٣٠٤/٤ •

وقد أورد الطبري قصيدة نصر التي بعث بها الى ابن هبيرة • وفيها :

أبلغ يزيد وخير القول أصدقه — وقد تبينت ان لا خير في الكذب
أنّ خراسان ارض قد رأيت بها — بيضا لو افرخ قد حدثت بالعجب
فراخ عامين إلا انها كبرت — لما يطرن وقد سربلن بالزغب
فإن يطرن ولم يحتل لهن بها — يلهبن نيران حرب ايما لهب

* * *

وهذه الابيات تشبه ما قاله شكسبير على لسان بروتس ، وقد ترجمها شعرًا الدكتور صفاءالخلوصي:

إن في قيصر شخصاً هائلاً — فلنحل دون الذي يبغي بنا
ولئن قيل صراع قد بدا — دون لون فجوابي مهنا
فهو إن ينم وينمو عاجلاً — كان هولاً بالغا أقصى الدنا
ببضة الافعى مثال رائع — ان تفقس انتجت كل عنا
فلنمتها وهي في قشرتها — قبل أن تدرك غايات المنى

(تاريخ الادب العباسي ص ٢٠-٢١) •

اقـول :

ان المقارنة بين القصيدتين تظهر ما في شعر نصر من حرارة وحركة لا اثر لها في القصيدة الاخرى، لسبب واحد ، في نظري ، هو أن نصراً يعيش قصيدته ، والثورة وخطرها أمامه • أما شكسبير فيعيش خياله ليصل به الى واقع غبر قبل مئات السنين •

(٢) الطبري ٣٧/٦ •

(٣) المرجع السابق •

(٤) المرجع السابق • الكامل ٣٠٤/٤ الاخبار الطوال ٣٤٠ •

(٥) الطبري ٩١/٦ المسعودي ٢٥٩/٣ ـ ٢٦٠ •

وقد انفرد ابن العبري في تاريخه (ص ٢٠٦) بخبر مآله أن ابراهيم بن محمد حج سنة ١٣١هـ، ومعه أخواه أبو العباس ، وأبو جعفر ، وعمه ، ومواليه على ثلاثين نجيباً عليهم الثياب الفاخرة ، والرحال والاثقـال •

وأرى أن هذه الرواية حرية بالرد لان ابراهيم كان في تلك السنة في غياهب السجن كما ذكر جمهرة المؤرخين ، وعلى الاخص شيخهم الطبري • ومن جهة ثانية أن طريقة تاليف ابن العبري لتاريخه تجعله غير جدير بالاعتبار كمرجع معتمد ، فهو مختصر جداً وخال من السند •

عندما أدرك نصر بن سيار أن خليفته قد فوّض إليه أمر خراسان ، وطلب منه أن يتصرف بنفسه كما يحلو له ، فكّر بموادعة أبي مسلم ومتاركته . وقد طلب منه ذلك ، ومثّل أحد نقباء بني العباس ، وهو لاهز بن قريظ ، أبا مسلم في مفاوضته الموادعة ،إلا أن لاهزاً هذا أخبر نصراً بما بيّته له أبو مسلم من غدر وخيانة ، وأنه لا شك سيقتله ، وكانت جائزة لاهزٍ على هذه المفاوضة أن قتله أبو مسلم بعد أن عاد من لقاء نصر[1] .

* * *

دارت المعارك قوية عنيفة بين أبي مسلم ، ونصر بن سيار ، انتقل نصر فيها من هزيمة إلى هزيمة أشد ، إلى أن تمكن أبو مسلم من دخول دار الإمارة في خراسان بمدينة مرو ، وذلك يوم ٩ جمادي الآخرة سنة ١٣٠ هـ[2] . وفرّ نصر من جيوش أبي مسلم حتى وصل مدينة ساوة القريبة من همذان ، وهناك لقي وجه ربه عن عمر ناهز الخامسة والثمانين[3] ، وكان ذلك سنة ١٣١[4] .

ولم تأت نهاية عام ١٣١ هـ حتى كانت جيوش بني العباس تحتل خراسان[5] ، ثم اتجهت نحو شمال العراق ،واتجه مروان للقائها في معركة فاصلة هي النتيجة المحتومة لأحد الجانبين ، تلك المعركة هي معركة الزاب[6] .

---

(١) الكامل ٣١١/٤ اليعقوبي ٣٤٢/٢ .

(٢) اليعقوبي ٤٣/٦ الكامل ٣٠٩/٤ .

(٣) الطبري ٦٤/٦ .

(٤) الطبري ٦٤/٦ الكامل ٣١٧/٤ .

(٥) الطبري ٦٩/٦ الامامة والسياسة ٢٢٣/٢ .

(٦) سيأتي تفصيل هذه المعركة في الفصل الرابع .

الفصل الثالث

شَخْصِيَّةُ مَرْوَان

مقـــدّمة

عرضنا فيما سبق أبرز الوقائع والحوادث ملخصـــة مركزة خالية من أي تحليل أو تعليل متعمّدين ذلك . حتى إذا أتينا إلى هذا الفصل استخلصنا شخصية مروان من تحليلنا لتلك الوقائع ..

والآن ... لنتقدم بالبحث ..

* * *

مولــــده

من العظماء من يولد ولا يعرف غير أبويه متى ولد .. وعنــدما ينطلق في درب الحياة إذا بأريج العبقرية يتضوع منه نبوغاً وذكاء ..

وقلة من هؤلاء من يحفل الناس بمولده ، ومنهم مروان ، لشهرة أسرته أو لأمر آخــر ..

ذكر معظم المؤرخين سنة مولده على خلاف بينهم فيها . ولعل سبب ذلك أن هؤلاء المؤرخين كتبوا تاريخهم بعد عشرات السنين من خلافة مروان .

نحن لايهمنا تاريخ الولادة لأنه لم يكن له أي أثر في شخصية مروان .. ولهذا اعتمدنا رواية شيخ المؤرخين الطبري التي ذكر فيها أن مروان قد ولد سنة ٧٦ هـ[١] وقد وافقه عليها بعض المؤرخين[٢] ..

نســــبه

هو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم شيخ بني أمية ..

والده : محمد بن مروان .

كان بطلاً من أبطال الجهاد لعب دوراً هاماً زمن عبد الملك . فقد كانعلى

---

(١) الطبري ٥/٨٣ .

(٢) ابن كثير ٩/١٥ . ابن عساكر ١٦/١٩٧ (٢).

وفي رواية غريبة لابن عساكر عن هاشم بن الحلبي أن مروان قتل وهو ابن أربعين (١٦/١٩٧)

(٢) أي أن ولادته كانت سنة ٩٢ . ولم يعقب ابن عساكر على هذه الرواية . ونحن لا نقبلها لانهاتتنافى مع وقائع حياة مروان . كما نقل ابن عساكر رواية ابن أبي السري أن مروان قتل وهو ابن ثلاثوستين سنا (نفس المرجع) وهذا يعني ان ولادته كانت سنة ٦٩ .وفي رواية ان دولده كان سنة٧٢ (ابنعساكر ١٦/١٩٢ (١) ... تاريخ الاسلام ٥/٢٩٨). وفي رواية لابن عساكر أن مروان قتل وهو ابن اثنتــين وثمانين سنة (١٦/١٩٧ (١)) وعلى هذا فمولده كان سنة ٥٠ للهجرة . وقد ترك ابن عساكر هــذه الرواية دونتعليق..

رأس الجيش الذي ذهب لحرب مصعب بن الزبير في العراق سنة إحدى وسبعين[1] . ثم ولي الجزيرة في عصر أبيه مروان بن الحكم إذ أن مروان وجّه قبل مهلكه ابنه محمداً إلى الجزيرة قبل مسيره إلى مصر . وكان ذلك سنة خمس وستين للهجرة[2] . بينما ذكر أحد المؤرخين أن عبد الملك هو الذي ولّى محمداً على الجزيرة وأرمينية سنة ٧٣[3] . ومن المحتمل أن يكون عبد الملك قد أضاف أرمينية إلى ولاية محمد بعد أن كانت له الجزيرة .. وفي أيام ولايته هذه ولد له مروان ..

كانت له مع الروم غزوات موفقة[4] . ففي عام ٥٤ هـ غزا الصائفة فهزم الروم[5] ، ثم أعاد الكرة عليهم في السنة التالية[6] .. وله غزوات ناجحة في أراضي أرمينية سنة ثلاث وسبعين[7] وخمس وسبعين[8] .

وقد ذكر بعض المؤرخين أن الوليد بن عبد الملك قد عزل عمّه محمد بن مروان عن الجزيرة وأرمينية ، واستعمل أخاه مسلمة بن عبد الملك[9] مخالفاً في ذلك وصية والده عبد الملك عند احتضاره إذ قال له : « انظر إلى أخي محمد فأمِّرْه على الجزيرة ، ولا تعزله عنها »[10] . ويظهر أن مسلمة بقي في ولايته حتى عزله يزيد بن عبد الملك سنة ١٠٢ وولى عليها في ذلك التاريخ عمر بن هبيرة[11] وهذا بعد وفاة محمد بن مروان .. بينما ذكر مؤرخ آخر أن محمداً بقي في ولايته

---

(١) الطبري ٥/٧ .
(٢) الطبري ٤/٤٨٣ .
(٣) الكامل ٤/٢٨ .
(٤) بروكلمان ١/١٦٩-١٩٧ .
(٥) الطبري ٥/٣٥ الكامل ٤/٣٣ .
(٦) الطبري ٥/٤٠ الكامل ٤/٣٣ .
(٧) الكامل ٤/٢٨ .
(٨) الكامل ٤/١٠٢ .
(٩) الكامل ٤/١١٩ .
(١٠) ابن كثير ٩/٦٧ .
(١١) الكامل ٤/١١٨ .

على الجزيرة وأرمينية وأذربيجان حتى توفي زمن يزيد بن عبد الملك[1] الذي ولي الخلافة سنة إحدى ومئة[2] .

ويظهر أن أسرة محمد بقيت في الجزيرة حتى ظهر مروان والياً عليها ..

* * *

كان محمد بطلاً شجاعاً شديد البأس[3] . وهو إلى جانب ذلك ذو تقى وصلاح .. فقد روى عنه أمير المؤمنين في الحديث ابن شهاب الزهري[4] .. وحسبك من شهادة على تقى إنسان وصلاحه أن يروي عنه الزهري حديث رسول الله ﷺ ..

ومن صلاحه أن عبد الملك لما وجه محمد بن مروان لحرب مصعب قال « اللهم انصر محمداً .. اللهم انصر أصلحنا وخيرنا لهذه الأمة »[5] .

كان يتورع عند حدود الله . فقد استجار به بهيس بن صهيب الجرمي بعد أن نزل به ، فقبل جواره ، وأجاره ، إلا من حد توجبه عليه شهادة[6] .

وكان إلى جانب ما ذكرنا عظيم المروءة . ومما يُروى عنه أنه كانت بين بني كلب وقوم من قيس ديات تحمّلها محمد بن مروان عن الفريقين[7] .

* * *

والدتـه

لقد أجمع المؤرخون على أن أم مروان جارية ، أم ولد[8] .. وقد انفرد

---

(١) ابن خلدون ٣/١٦٥ الكامل ٤/١٦٧ .
(٢) الطبري ٥/٣٢٤ .
(٣) الكامل ٤/١٦٧ شذرات ١/١٢١ .
(٤) الطبقات ٥/١٧٦ .
(٥) الاغاني ١٧/١٦٢ .
(٦) الاغاني ١٩/١٠٩ .
(٧) الاغاني ١١/٩١ .
(٨) الطبري ٦/٩٧ ابن عساكر ١٦/١٩١ (٢) و ١٩٢ (١) تاريخ الاسلام ٥/٢٩٨ .

ابن عبد ربه برواية خاصة ذكر فيها أن أم مروان هي بنت إبراهيم بن الأشتر[1].

انطلق المؤرخون يفتشون عن هذه الوالدة، اسمها، جنسيتها. عند من كانت..

هي عند أحد المؤرخين جارية لإبراهيم بن الأشتر. وهي كردية اسمها لبانة[2]، وعند شيخ المؤرخين الطبري كذلك دون أن يذكر اسمها[3].. ونقل البلاذري رواية في غاية القبح والتشهير مفادها أن محمد بن مروان أخذ جارية من عسكر ابن الأشتر وبها حَبَل، فولدت مروان على فراشه[4] فمروان إذاً ليس ابناً لمحمد... وحسبنا أن نذكر أن البلاذري نقل هذه الرواية بصيغة التضعيف « يقال.. ».

وعند مؤرخ أن مروان كانت أمه أمَةً لخبّاز كان عند مصعب بن الزبير، أو ابن الأشتر، واسم الخباز زربا. وقال بعضهم أن زربا كان عبداً لمسلم بن عمر الباهلي[5].

لقد تتبعت سيرة هذه الأم فلم أعثر إلا على خبر واحد يدل على أنها كانت شديدة الشكيمة والعزيمة..

خرج الحجاج بن قتيبة بن مسلم الباهلي مع أسرة مروان بعد قتله هرباً من سيف بني العباس، وكان الجميع يسيرون في أدغال إفريقية لم أجد أتعس من حالهم. قال الحجاج: « كانت معنا أم مروان فما أنّت أنّة واحدة وما سمعت منها كلمة، ثم مشينا حتى تقطّعت أرجلنا »[6].

---

(١) العقد الفريد ٤/٤٦٨.
(٢) ابن عساكر ١٦/١٩١ (٢).
(٣) الطبري ٦/٩٧ برواية أحمد بن زهير. وكذلك الكامل ٤/٣٣٢.
(٤) البلاذري ٥/١٨٦.
(٥) العقد الفريد ٤/٤٨٦.
(٦) تهذيب ابن عساكر ٤/٤٧-٤٨.

لنتأمل هذه الأم الأمَة وقد شاهدت قتل ولدها خليفة المسلمين ، والتمثيل به ، وخرجت هاربة مع أسرته ، ومـــن يلوذ بها تقطع غابات إفريقيـــة ومجاهلها مشياً على الأقدام لم تبدُ منها أنَّة واحدة •• وعهدنا بالنساء الشكوى والنواح لأقل نازلة •••

* * *

نشـــأته

لانكاد نعثر على ما يدلنا كيف كانت تنشئة هذا الرجل العظيم • ويظهـــر أنه تلقى التربية الأولى على يد أبيه ، ومن هذه التربية الفروسية وأمور الحرب •• وكانت تبدو عليه ملامح الاعتداد بالنفس منذ الصغر ••

ذكر الأصبهاني أنه بعد أن خرج عبيد الله بن عبد الله بن عتبـــة بن مسعود مع ابن الأشعث ، وحاقت الهزيمة بالأخير هرب عبيد الله من الحجاج بن يوسف ، والتجأ إلى محمد بن مروان بنصيبين طالباً منه الأمان ، فأمَّنه ، وطلب منـــه أن يؤدب ولديه مروان ، وعبـــد الرحمن •• وبعد فترة ســـأل الأب عـــن ولديه فوصفهما عبيد الله بقوله : « أما عبد الرحمن فطفل • وأما مروان فإني إن أتيتُه حجب ، وإن قعدتُ عنه عتب ، وإن عاتبتُه صخب ، وإن صاحبتُه غضب »[1] • ولا شك أن مثل هذه التصرفات إن دلَّت على شيء فإنها تدل على شخصية معتدَّة بذاتها لأننا نعرف في الأطفال سرعة الانقياد ••

* * *

أولاده

لم أعثر على اسم المرأة التي تزوج بها مروان ، وأنجبت له أولاده[2] ••

---

(١) الاغاني ٨/٩٨ •

(٢) وجدت في كتاب المكافاة وحسن العقبى ان زوج مروان اسمها مرية - بضم الميم وفتح الراء وتشديد الياء - كانت زوجة لهشام بن عبد الملك وقد تزوجها مروان بعد وفاته (ص٩٥) ولا يمكن للباحث العلمي أن يركن لهذا ، لان الكتاب ليس بمرجع علمي وانما هو كتاب وعظ وتوجيه •

كما لم أعلم ما إذا كان أولاده أشقاء أم لأب فقط .. وكل ما وجدته أن له من الأولاد : عبد الملك ، ومحمداً ، وعبد العزيز ، وعبيد الله ، وعبد الله ، وأبان ، ويزيد ، ومحمد الأصغر ، وأبا عثمان[1] .. وذكر له بعض المؤرخين بنات دون أن يذكر عددهن ولا عمرهن ولا أسماءهن[2] . وذكر له أحد المؤرخين بنتين : أم عثمان ، وأم الوليد .. أما الأولى فكانت زوجة لأبان بن يزيد ، وكان مروان قد خلّفه بمدينة حران بعد أن توجّه إلى الزاب . بيد أن أبان هذا كان قد اتخذ السواد شعار العباسيين بعد أن غادر مروان حران ، فأمّنه عبد الله بن علي عندما احتل حران ، وترك له حران ، والجزيرة . وأما الثانية فهي زوجة الوليد ابن معاوية بن مروان ، وكان والياً لمروان على دمشق ، قتله عبد الله بن علي عندما احتل المدينة[3] .

وعند مؤرخ آخر أن لمروان أربعة أولاد ذكور : عبد الملك ، وعبد الله ، وعبيد الله ، ومحمد ، وبنتاً عمرها ست سنوات يوم قتل والدها[4] ..

أشهر أولاده عبد الملك . ويظهر أن مروان قد ربّاه على الحرب . فقد أرسله إلى غزوة الصائفة[5] . ثم إن عبد الملك بعد أن علم بقتل الوليد بن يزيد انقضّ على الجزيرة ، وطرد واليها ، وضبط أمورها ، ثم طلب من أبيه أن يعجل السير ، والقدوم من أرمينية[6] . وبعد أن قدم مروان يريد الشام خلّف ابنه عبد الملك في أربعين ألفاً من الجند مرابطاً بمدينة الرقة[7] .

أما عبد الله فكان قائداً لستين ألفاً في معركة الزاب[8] ، وقد قتله الأحباش

---

(١) العقد الفريد ٤/٤٦٩ .
(٢) المسعودي ٣/٢٦٢ .
(٣) الطبري ٦/٩٣ .
(٤) اليعقوبي ٢/٣٤٧-٣٤٨ .
(٥) الطبري ٥/٥٩٣ .
(٦) الطبري ٥/٥٩٣ .
(٧) الطبري ٥/٥٩٧ .
(٨) الطبري ٦/٩٢ .

عندما فر مع بقية الأسرة إثر مقتل أبيه[1] . وكان معه أخوه عبيد الله ، وتمكن هذا من النجاة[2] ، ويظهر أنه عاد إلى فلسطين ، وأقام بها ، وألقي عليه القبض في عهد الرشيد وأودع غياهب السجن ، ولم يخرج منه إلا بعد أن صار شيخاً كفيفاً[3] .

وقد ذكر مؤرخ آخر أن الذي قتل هو عبيد الله[4] .

أما بقية الأولاد فلا نعرف عنهم شيئاً ، وربما لقوا مصرعهم بعد مصرع أبيهم في أثناء الرحلة الشاقة التعيسة عبر مجاهل إفريقية . وقيل بأن ثلاثة من أولاده مع أتباعهم ، ومن بقي من أهليهم التجأوا إلى منطقة ديار بكر من أرض الجزيرة وسكنوا بها ، وحكموها ، والتفت حولهم فلول الأمويين المبعثرة في مصر والشام[5] .

أما البنات فكانت المصائب من نصيبهن .. ويظهر أن مروان كان يخاف عليهن ، ويترقب المصير السيء لهن . ولم يكن يهمه في حربه مع بني العباس إلا البنات ، فهو يخاف السبي شأن كل عربي صميم .. فقد أرسل إلى صالح ابن علي يقول : « متى ظفرت بهذا الأمر ، فأوصيك بالحرم خيراً » فكان جواب صالح : « ياجاهل : إن الحق لنا عليك في نفسك ، ولك علينا في حرمك »[6] .. وقد عومل هؤلاء البنات أسوأ معاملة..فعندما تولى عامر بن إسماعيل الخراساني قتل مروان دخل بيته ، وجعل رأسه في حجر ابنته ، فقالت له : « يا عامر ، إن دهراً أنزل مروان عن فراشه ، وأقعدك عليه حتى تعشيت عشاءه ، لقد أبلغ في موعظتك ، وعمل في إيقاظك ، وتنبيهك إن عقلت ، وفكرتَ » ثم ندبتْ أباها[7] ، وقد تشفى منهن أشد التشفي صالح بن علي في حوار شديد بينه وبين البنت

---

(1) الطبري ٦/٩٢-٩٣ .

(2) الطبري ٦/٩٣ .

(3) شرف نامة ١/٢٥٧-٢٥٨ .

(4) اليعقوبي ٢/٣٤٧ وكذلك ورد في الكامل ٤/٣٣١ .

(5) شرف نامة ١/٢٥٨ .

(6) اليعقوبي ٢/٣٤٦ .

(7) شذرات ١/٨٤ .

الكبرى[1] ..

خرجت هذه الأسرة ، مع والدة مروان هائمة على وجهها في صحراء إفريقية حتى خرجت جماعة من الحبشة ، وعرّت الأسرة من ثيابها ، واتجهت نحو باب المندب عرايا ، وقد شرب أفرادها من البول ، وتصدق الناس عليهم ، ثم خرجوا إلى مكة في زي الحمالين[2] .

لقبـــه

حاول أعداؤه الطعن بنسبه من جهة أمه ، فلم يكن هذا بالمطعن الرئيسي في نظرهم لمكانة أبيه محمد التي نوهنا عنها ..

وكذلك حاولوا النيل من عظمته بلقب منحوه إياه ..

لُقّب بالحمار ولُقّب بالجعدي .

أما اللقب الاول :

فقد أجمع على ذكره المؤرخون ، ولا أجافي الحق إذا قلت إن هذا اللقب قد شاع على ألسنة الناس حتى الآن ، فلا يكاد يذكر اسم مروان إلا ويقرن به لقب الحمار ..

ومعذرة المؤرخين أنهم دونوا تاريخهم بعد عصر مروان بعشرات السنين في زمن كان الجميع فيه أعداء بني أمية ، وبهذا نقلوا على ما يظهر كل ما كان يشاع على ألســنة الناس[3] .

---

(١) الكامل ٤/٣٣٢ المسعودي ٣/٢٦٢-٢٦٣ .

(٢) اليعقوبي ٢/٣٤٧-٣٤٨ .

(٣) المصدران الرئيسيان في تاريخ بني أمية هما : تاريخ اليعقوبي المتوفى سنة ٢٨٤ هـ (٨٩٧م) وهو علوي لا يستطيع اخفاء عدائه لبني أمية . والثاني هو تاريخ الطبري : المسمى تاريخ الامم والملوك. ومؤلفه متوفى سنة ٣١٠ هـ (٩٢٢ ميلادي) . ويؤخذ عليه أن عنايته تتجه الى العراق وايران أكثر من الشام ومصر . فلا غرابة اذا قلّت بســبب ذلك اهمية الطبري بالنسبة لتاريخ بني أمية .. (الوليدص٣) أما عن ابن قتيبة مؤلف (الامامةوالسياسة) والمسعودي فيكفي وصف ابن العربي لهما يرجع اليه من شاء (العواصم من القواصم ٢٤٨-٢٤٩) ..

أما تعليل هذا اللقب فقد اختلف فيه المؤرخون والكُتّاب ..

ذكر بروكلمان أن لقب الحمار الذي منح لمروان لقب" « يبدو غريباً جداً لم يقصد به إلى السخر به ولكن إلى المديح . ذلك أن الحمار الوحشي يعتبر عندهم أنبل حيوانات الطرد (الصيد) »[1] .

وعند المرحوم محمد كرد علي أن لقب الحمار منح لمروان لصبره على الحرب[2] .. وعند غيره لم يكن هذا اللقب على سبيل الهزء والسخرية بل على سبيل المجاز إشارة لقوة عضلاته وإعجاباً بصلابته[3] .

وأما ولهاوزن فإن هذا اللقب عنده يعتبر على سبيل السخرية ، لأن مروان كان يحب ورد الحمير[4] .. ويفسر مولر هذا اللقب ارتجالاً على أنه مديح ويحيل على الإلياذة[5] .

* * *

وقد سبق لبعض مؤرخينا القدامى أن انتبه لما في هذا اللقب من شين فحاول تعليله ..

فعند ابن خلدون أن مروان لُقّب بالحمار « لحرنه في مواطن الحرب »[6] . ويظهر لنا أن هذا اللقب إنما منحه لمروان أصدقاؤه . يقول ابن خلدون بعد تلك العبارة مباشرة « وكان أعداؤه يلقبونه بالجعدي » ..

وأما ابن الطقطقي فيقول «إنما لُقّب بالحمار قالوا لصبره في الحرب »[7] .

---

(١) بروكلمان : ١٩٦/١ حاشية رقم ٤٨ .
(٢) خطط الشام ١٦٥/١ .
(٣) سيد أمير علي ١٤٥ .
(٤) ولها وزن ٢٩٦ .
(٥) المرجع السابق حاشية ص ٢٩٦ .
(٦) ابن خلدون ٢٨٢/٣ .
(٧) الفخري ٩٧ .

وأما المقدسي فجعل لقبه « حمار الجزيرة »[1] دون أي تعليل ..

وأما البدليسي فقد روى قصة حلوة مفادها أن هذا اللقب منحة من والده حين كان مروان في ميعة الطفولة[2] ..

وأما السيوطي فيذكر لنا التعليل كأوضح ما ذكره مؤرخ . وعنده أن مروان لُقّب بالحمار « لأنه كان لا يجف له لبد في محاربة الخارجين عليه . كان يصل السير بالسير ، ويصبر على مكاره الحرب . ويقال في المثل : فلان أصبر من حمار في الحروب ،فلذلك لُقّب به . وقيل : لأن العرب تسمي كل مئة سنة حماراً ، فلما قارب ملك بني أمية مئة سنة لقبوا مروان بالحمار لذلك »[3] ..

ونحن نستغرب هذا التعليل الذي فيه تكلف ظاهر .. فقد عرفنا سِيَرَ قُواد عظماء حفل بهم تاريخنا كان لهم صبر على مكاره الحرب ، أي صبر ، ومع ذلك لم يُلقّب أحدهم بالحمار . كما أننا لم نعرف أن قائداً أراد أن يشجع جنده عند وطيس المعركة الملتهب بقوله : اصبروا يا حمير !.. وإن قول السيوطي أن العرب تسمي كل مئة سنة حماراً غير صحيح كذلك ، لأنه لم يذكر لنا حمار المئة الثانية وما بعدها ، ولو ذكر لنا لسايرناه فسمينا حمار القرن العشرين !..

* * *

ونحن نقول إن هذا اللقب كان ذماً ، ونيلاً من مكانة مروان ، والتشهير به ، وليس فيه أي معنى من معاني المديح. وكل تعليل آخر غير مقبول ، لأن العرب في شعرهم القديم جاهليه وإسلاميه ــ فيما نعلم ــ لا تستعمل اسم الحمار على سبيل المدح . فإذا كان الأمر كذلك ، فكيف يُتقبّل تعليل هؤلاء المؤرخين بأن هذا اللقب من ألقاب الفخر والتباهي ؟..

وأرى أيضاً أن هذا اللقب إنما دعي به مروان إثر هزيمته الأخيرة . فقد

---

(١) المقدسي ٦/٥٤ ..

(٢) انظر القصة ــ شرف نامة ١ـ٢٥٧ .

(٣) تاريخ الخلفاء ١٦٩ . وقد ورد في مجمع الامثال للميداني هذا المثل : اصبر من حمار.

وجدت نصاً يمكن أن يدل على ذلك . قال الطبري « لما قام أبو العباس دخل عليه عبد الله بن عياش المنتوف فقال : الحمد لله الذي أبدلنا بحمار الجزيرة ، وابن أمة النخع ، ابن عم رسول الله ﷺ ، وابن عبد المطلب .. »(١).

وربما كان مما يؤيد رأيي أن هذا اللقب منحة من أعداء مروان ، وما كان مروان حين الولاية بموضع يسمح له باكتساب الأعداء ، وكذلك في أول عهده بالخلافة ، فإنه حاول أن يربأ الصدع الذي أحدثه بالتقرب إلى الناس ، ومع ذلك، فإن النفرة كانت منه لقوله برأي الجعد بن درهم ، أما عند هزيمته فقد أضيف إليه لقب جديد .. وهو ما نكتب عنه .. ونحن نعرف من واقع الحياة كيف أن الناس يتقربون من المتسلط الجديد على الحكم بالنيل من الحاكم السابق ، والتشهير به ...

* * *

وأما اللقب الثاني :

لقب مروان بالجعدي أيضاً .. فمن أين اكتسب هذا اللقب ؟.. من الجعد ابن درهم . والجعد كان مولى سويد بن غفلة صار إلى الجزيرة(٢) ، وكان واليها مروان ، فاتخذه مؤدباً له ، ولولده . وقد قتل هشام بن عبد الملك الجعد أيام خلافته بعد أن طال حبس الجعد في سجن خالد بن عبد الله القسري(٣).

ويقال إن آل الجعد رفعوا قصتهم إلى هشام يشكون فيها ضعفهم ، وطول حبس الجعد ، فتساءل هشام : أهو حي بعد ؟. وكتب إلى خالد في قتله ، فقتله يوم عيد الأضحى ، وجعله بدلاً من الأضحية(٤).

ولقد نقل شيخ العروبة أحمد زكي باشا أن الجعد من شيوخ المعتزلة ،

---

(١) الطبري ٩٧/٦ .
(٢) اللباب ٢٣٠/١ .
(٣) الفهرست ٤٧٢ الكامل ٢٥٥/٤ .
(٤) الفهرست ٤٧٢-٤٧٣ الكامل ٢٥٥/٤ وكان قتله سنة ١٢٤ هـ كما ذكر ابن كثير (٣٥٠/٩)

وأظهر مقالته بخلق القرآن ، والقدر ، والاستطاعة . ومن أقواله : إذا كان الجماع يتولد منه الولد ، فأنا صانع ولدي ، ومدبّره ، وفاعله ، لا فاعل له غيري ، وإنما قال إن الله خلقه مجازاً لا حقيقة .. » . ومن قوله : « إن كان النظر الذي يوجب المعرفة تكون تلك المعرفة فعلاً لا فاعل لها .. » وقد وعظه ميمون بن مهران فقال : للشاه قباذ أحب إلي مما تدين به .. » فقال له ميمون « قتلك الله ، وهو قاتلك .. » وشهد عليه ميمون ، فطلبه هشام ، حتى ظفر به ، فأرسله إلى خالد القسري ، وهو أمير العراق ، وأمره بقتله . وقد قال خالد قبل قتل الجعد: إن الجعد يقول ما كلّم الله موسى ، ولا اتخذ إبراهيم خليلاً .. » [1] .

* * *

تلقى الجعد آراءه عن بيان بن سمعان ، وأخذها بيان عن طالوت بن أخت لبيد بن أعصم زوج ابنته وأخذها لبيد بن أعصم الساحر الذي سحر رسول الله ﷺ عن يهودي باليمن [2] ..

ومن الجعد أخذ الجهم بن صفوان[3] ، وعن الجهم أخذ بشر المرّيسي ، وعن بشر تلقى أحمد بن أبي دؤاد[4] . وهؤلاء هم شيوخ المعتزلة .

كان للجعد محاورات ، ومناظرات مع وهب بن منبه حول صفات الله تعالى . حتى أن وهباً قال له : ويلك يا جعد اقصر المسألة عن ذلك إني لأظنك من الهالكين . لو لم يخبرنا الله في كتابه أن له يداً ما قلنا ذلك ، وأن له عيناً ما قلنا ذلك ، وأن له نفساً ما قلنا ذلك ، وأن له سمعاً ما قلنا ذلك ، وذكر الصفات من العلم ، والكلام ، وغير ذلك[5] ..

---

(١) التاج ـ حاشية ٣ ص ١٠٦ .

(٢) ابن كثير ٩/٣٥٠ عن ابن عساكر وغيره .

(٣) في ترجمة الجهم وآرائه انظر : البغدادي ١٩٩ـ٢٠٠ الملل والنحل ١١٣ـ١١٥ تاريخ الاسلام ٥/٥٦ ـ ٥٨ فجر الاسلام ٢٨٦ـ٢٨٧ . وقد بلغ من مكانة الجعد حدا أنه اختير حكما في الخلاف الذي جرى بين نصر بن سيار والحارث بن سريج في خراسان (الكامل ٤/٢٩٣ حوادث سنة ١٢٨هـ).

(٤) ابن كثير ٩/٣٥٠) .

(٥) ابن كثير ٩/٣٥٠ .

لقد رماه أعداؤه بالزندقة • وهذا جر على مروان الطعن بدينه • فرُمِيَ بالزندقة أيضاً[1] •• ومن هنا أمكن أن نعلل ما ذكره مسلم بن ذكوان عندما أرسله يزيد بن الوليد بكتاب إلى مروان ، وقد دخل عليه ، وصلى المغرب خلفه•• قال مسلم: « فلما صلى مروان انصرفت لأعيد الصلاة.ولم أكن أعتدبصلاته »[2]•

ومن هنا عرفنا أيضاً كيف أن لقب مروان : الجعدي . لم يكن إلا للنيل منه ، وإن خالفنا في هذا قول أحمد زكي باشا بأنه « لما حارب الخراسانيون مروان شاهدوا سعة علمه فنسبوه إلى الجعد »[3]•

* * *

نحن نتساءل : هل كان مروان زنديقاً[4] ؟••

لن نلجأ إلى الاستنتاج بل سنذكر بعض الوقائع التي نقلها مؤلفون قدامى••

حكى الماوردي أن بردة رسول الله ﷺ كان يحتفظ بها مروان في خزانته حتى قتل[5] •

وذكر المقدسي أن مروان لما أيقن بالهلاك دفن قضيب رسول الله ، ومخصفته في رمل كي لا يعثر عليهما أحد ، ولا ينال • فدل بني العباس عليهما خصي من خصيانه[7] • مما يدل على تعلقه الشديد وتمسكه بآثار الرسول العظيم ••

---

(١) ابن خلدون ٣/٢٨٢ المقدسي ٦/٥٤ الفهرست ٤٧٢ •

(٢) الطبري ٥/٥٨٢ •

(٣) التاج ص ١٠٦ حاشية رقم ٣ •

(٤) في معنى زندبق ـ راجع اذا شئت ـ خدابخش ١٦ ١•

(٥) الماوردي ١٧٢ •

(٦) حكى اياس بن تغلب أن رسول الله ﷺ وهب بردته لكعب بن زهير ، فاشتراها منه معاوية بن ابي سفيان ، وكان يلبسها الخلفاء • وحكى حمزة بن ربيعة أن رسول الله ﷺ أعطى هذه البردة لاهل القدس ، فاخذها منهم عبد الله بن خالد بن أبي أوفى ، وكان عاملا عليهم لمروان بن محمد . وبعث بها اليه ، وبقيت معه في خزانته حتى أخذت بعد قتله • وقد أصبح القضيب والبردة شعار الخلفاء (الاحكام السلطانية لأبي يعلى ص ١٨٦) •

(٧) المقدسي ٦/٧٣ •

ويذكر ابن عساكر أن نقش خاتم مروان : رضيت بالله العظيم [1] •• وعند غيره أن نقش الخاتم كان : اذكر الموت ياغافل [2] •

وينقل ابن عساكر بسنده إلى أبي زرعة أنه قال : ومن بني أمية من يحدث مروان بن محمد [3] •• مما يشير إلى علمه بالحديث الشريف •• وقد يشكل عليه بعض المسائل الشرعية فلا يقول بها برأيه بل يسأل أهل العلم • فقد سأل سالماً الأفطس عن تعجيل الزكاة قبل أن يحل أجلها، فسأل سالم" سعيد بن جبير عن ذلك، فلم يرَ به بأساً [4] •• وهو يتمسك بقواعد الاسلام وأحكامه حتى آخر لحظة من حياته •• فقد ذكر بعض المؤرخين أن مروان كان صائماً حين قتل [5] •

وبعد •••

هل يصنع كل ما ذكرنا زنديق ؟ نحن نترك للقارىء الجواب والحكم ••

وقد يتردد في الذهن سؤال عن مذهب مروان : هل هو جبري أم قدري ؟

نحن نعرف أن الجبرية تنفي الفعل عن العبد حقيقة، وتنسبه إلى الله تعالى [6] •

وأما القدرية ، فإنهم يسمون أهل العدل والتوحيد • والقدرية لقب المعتزلة • وخلاصة مذهبهم أن الله قديم ، والقِدَم أخص وصف لذاته سبحانه ، ونفوا الصفات القديمة أصلاً • وأن كلامه سبحانه مخلوق ، وأن العبد قادر خالق لأفعاله خيرها وشرها ، وأن المؤمن لا يخلد في النار ، وأن الحسن والقبح يجب معرفتهما بالعقل [7] •• فمن أي المذهبين كان مروان؟••

---

(١) ابن عساكر ١٦/١٩٦ (١) •

(٢) اخبار الدول ١٣٣ •

(٣) ابن عساكر ١٦/١٩ (٢) •

(٤) ابن عساكر ١٦/١٩١ (٢) •

(٥) شذرات ١/١٨٣ •

(٦) الشهرستاني ١١٢ •

(٧) اقرأ تفصيل مذهب المعتزلة ـ ان شئت ـ في الشهرستاني ٥٧ ـ ١١٢ فجر الاسلام ٢٩٤ ـ ٢٩٥ كريمر ٧٠ـ٧١ •

يذهب بعض المؤرخين إلى أن مروان كان قد اعتنق مذهب الاعتزال[1].

ويذهب البعض إلى أن مروان كان جبرياً عدواً لحرية الإرادة[2] .. بينما يرى أحد المؤرخين أن مروان لم يتبع أي مذهب عقائدي وإنما كان يسير وراء اعتبارات سياسية[3] ..

* * *

ولعل حجة القائلين بالرأي الأول هي هذه النسبة الملحوظة في لقب مروان ، فهو مروان الجعدي وكان الجعد يعتنق قول القدرية[4]، مثله مثل معبد الجهني[5]، وغيلان الدمشقي[6] .. ومادام الجعد قدرياً ، فمروان قدري كذلك ..

ويؤيد المرحوم أحمد أمين هذا المذهب بالنسبة لمروان خاصة وللأمويين عامة بحجتين .

الأولى : أنه لم يعثر على أن اضطهاداً وقع على رجل من كبـار المعتزلة في العهد الأموي ..

والثانية : أنه ليس من المعقول أن يعتنقه بعض المتأخرين من خلفاء بني أمية إذا كان يضعف دولتهم ، ويؤيد خصومهم . ومن هؤلاء الخلفاء يزيد بن الوليد ومروان بن محمد[7] ..

---

(١) فجر الاسلام ٢٩٥ أبو الفدا ٢/٢١٢ سيد أمير علي ١٧٩ .

(٢) تيوفان ٦٢٤١ مذكور في : ولهاوزن ٣٠٠ حاشيته رقم ٩ . العميد العش ٣٢١-٣٢٢ .

(٣) ولهاوزن ٣٠٠ حاشية ٩

(٤) اختلف المؤرخون بشان مذهب الجعد ... فهو عند البعض قدري (البغدادي ١٤ وأبو الفدا ١/٢١٢ واحمد زكي باشا شيخ العروبة التاج ١٠٦ حاشية ٣).. وربما كانت شبهة هؤلاء أن الجعد أول من قال بخلق القرآن، كما قال بنفي الصفات المتعلقة بالذات الالهية (ابن كثير ٩/٣٥٠ الكامل ٤/٢٥٥ ابن خلدون ٣/٢٨٢ العميد العش ٣٢٢) . اضافة للمصادر السابقة ... ومن المعلوم أن المعتزلة هم الذين يقولون بخلق القرآن .. والجعد عند البعض جبري .. (العميد العش ٣٢٢) .

(٥) في ترجمة معبد الجهني انظر - اذا شئت التوسع - أسد الغابة ٤/٣٩٠ فجر لاسلام ٢٨٤ - ٢٨٥ .

(٦) البغدادي ١٤ . وفي ترجمة غيلان انظر : الكامل ٤/٢٥٥ التاريخ الكبير ٤/١٠٢-١٠٥ فجر الاسلام ٢٨٥ خدابخش ١٤٥ .

(٧) فجر الاسلام ٢٩٤-٢٩٥ .

ونحن لا نقول بأن مروان قدري المذهب لما يلي :

أولاً : لا يُعقل أن يكون إنسان مثل مروان يترسَّم خطى مؤدبه خطوة خطوة ويقول بكل ما يراه الأستاذ . لأن مثل هذا الإنسان ليس إلا صورة مشوّهة للغير ولم يكن مروان في أية مرحلة من حياته كذلك ..

ثانياً : لو صح أن الجعد كان يقول بخلق القرآن ، ونفي الصفات عن الله سبحانه ، فإن هذا لا يجعله معتزلي المذهب والفكر ، لأن هؤلاء لا يقفون عند هذا الحد من مذهبهم ، بل يقولون أيضاً أن الإنسان حر في أفعاله ، فهو يقوم بها بملء حريته واختياره . وهذا المبدأ أساسي جداً في مذهب المعتزلة .. أما الجعد فانه يرى أن الانسان مجبر في أفعاله ليس له من الحرية والخيار أي نصيب.

ونحن نعتقد أن هذا القول يفصل الجعد عن المعتزلة،ولايصح القول بأنه منهم رغم التقائه معهم في خلق القرآن ونفي الصفات .. وأن التشابه بين مبدأ وآخر في بعض النقاط لا يجعلهما مبدأ واحداً .

ثالثاً : في رسالة وجهها مروان إلى الغمر بن يزيد كي ينهض مطالباً بدم أخيه الوليد ، يقول مروان : غير أني رأيت غيَرَاً إن لم أشمِّر للقدرية إزاري وأضربهم بسيفي جارحاً يرمي قضاء الله في ذلك حيث أخذ ، أو يرمي في عقوبة الله حيث بلغ منهم فيها رضاه.. »[1] فمن كانت هذه رغبته هل يعقل أن يقول عنه أحد أنه قدري ؟..

ولو صح أن مروان كان قدرياً في مذهبه لما ثار على يزيد بن الوليد ، ونحن نعلم أن يزيد هذا كان يعتنق القدرية[2] .. وأن المعتزلة هم الذين ساعدوه مساعدة فعالة كي يصل بقتل الخليفة السابق الوليد بن يزيد إلى سدة الخلافة[3]. وقد بلغ من مكانة هؤلاء عند يزيد أنهم فرضوا عليه أن يوصي بولاية العهد لأخيه

(١) الطبري ٥/٥٨١ .

(٢) الطبري ٥/٥٩٥ العقد الفريد ٤/٤٦٥ الدوري ٧٩ خدابخش ١٤٥-١٤٦ .

(٣) المسعودي ٣/٢٣٩ .

إبراهيم بن الوليد من بعده ، وأن يكون عبد العزيز بن الحجاج بعد إبراهيم . ونفّذ يزيد رغبتهم[1] ..

رابعاً : يقول أستاذنا الدكتور يوسف العش في تحليل موقف المعتزلة من الدولة الأموية « لم يدرس أمر القدرية من الوجهة السياسية دراسة تامة . والذي ظهر لي بعد البحث أنهم كانوا موجّهين من بعض العلويين ، وأن هؤلاء العلويين كانوا يشجعون حركتهم ، لأن فيها ثورة على الحكم الأموي وعدم القبول به . فالقدرية بدعواها أن الإنسان مخيّر غير مسيّر لا تقبل بالأمر الواقع ، وهو ظلم الأمويين بل تثور عليه . وأياً كان فالدور الذي لعبته القدرية إنما كان على طرفي نقيض مع مصلحة بني أمية ..

وكان طبيعياً أن يلتحق القدرية المشجّعون من آل البيت بالمؤامرة التي كانت تحاك ضد الوليد بن يزيد ، لأن فيها هدماً للبيت الأموي ، وطبيعي أيضاً أن يحاولوا جلب الذين قادوا الثورة من الأمويين ، وهو يزيد بن الوليد ، إلى جانبهم فيقول بقولهم ويحظى بصداقتهم .. »[2] .

ونحن نرجح هذا الرأي لأنه مؤيد بالواقع . ذلك لأن القدرية لم تعمل على نشر مبادئها يوم أن كانت مؤيدة بقوة الخليفة الأموي ، كما كان الأمر أيام المأمون .. وهذا يعني أن نشاط القدرية كان سياسياً بحتاً ..

ومن ناحية أخرى نلحظ أن بعض كبار بني العباس كداود بن علي كان يعتنق الاعتزال[3] .. ولو أن بني العباس لمحوا عند المعتزلة شيئاً من التأييد لبني أمية لبطشوا بهم أشد البطش ، وهم الذين أرادوا أن يستأصلوا شأفة بني أمية، وكل من يلوذ بهم ، ولم يخل من نقمتهم أحد حتى الأموات[4]..

---

(١) الطبري ٥/٢٩٣ الكامل ٤/٢٧٧ العقد الفريد ٤/٤٦٦ ولهاوزن ٢٩٤ .

(٢) الدولة الاموية : ٢٩٠ .

(٣) تاريخ الاسلام ٥/٢٤٢ .

(٤) انظر ص ١٦٤ ـ ١٦٥ من هذا الكتاب .

وفي الرد على عدم اضطهاد بني أمية للمعتزلة نقول : إن الدولة الأموية لم تكن تقبل أي نقد ، أو ملاحظة تتعلق بنظام الحكم .. ويظهر أن المعتزلة لم يكن رأيهم في الإمامة قد ظهر في عصر بني أمية ، بدليل أن واصل بن عطاء الذي توفي سنة ١٣١[١] لم ينقل عنه رأي الإمامة[٢] .. وإذا كان الأمر كذلك ، فإن من المحتمل جداً أن تترك الدولة المعتزلة دون أن تضطهدهم ما داموا في حيز بعيد عن الخوض في نظام الحكم..

إننا على ضوء ما تقدم نرجح أن مروان لم يكن قدرياً كما ذهب بعض المؤرخين .

إذا لم يكن مروان قدرياً فهل هو جبري المذهب ؟..

حجة تيوفان ، الذي قال بأن مروان كان جبرياً لقربه من أهل حران الآراميين الذين ظلوا وثنيين[٣] ..

وحجة الدكتور العش أن المجتمع الذي تكوّن في الجزيرة هو مجتمع جديد له كيان خاص وأفكار خاصة يمثلها الجعد بن درهم . وأن الجعد عندما قال بخلق القرآن وبنفي الصفات الإلهية إنما كان يواجه المسيحيين الذين يجادلون المسلمين بأن المسيح ما دام كلمة الله فهو من ذات الله .. وأن الجعد حين قال بالجبر ونفي الحرية والاختيار نراه يعبر عن مبدأ كان يقول به الأمويون من جهة ، ومن جهة أخرى فإن مذهب الجبر يلائم مجتمع الجزيرة حيث الدولة الحازمة والقيادة الحربية الصارمة[٤] ..

ونحن نستغرب قول تيوفان لأنه لم يقدم لنا أي دليل يدعم ما انتهى إليه . ثم إننا نرى أن قول تيوفان بأن أهل حران ظلوا وثنيين قول مستهجن جداً لأن

---

(١) كريمر ١٤٦ .
(٢) مبادىء المعتزلة ومذهب واصل بن عطاء يرجع في درسها الى الشهرستاني ٥٧ـ١١٢ .
(٣) ولهاوزن ٣٠١ حاشية ١١ .
(٤) باختصار شديد ... الدولة الاموية ٣٢١ـ٣٢٢ .

حران في العصر الأخير للدولة الأموية كانت مركزاً لأسقفية نصرانية . ومن أشهر الأساقفة في هذا العصر تيودوروس أبو قرة الذي توفي سنة ٨٢٠ م[١] . فحران إذا لم تكن وثنية كما زعم تيوفان .

أما حجة الدكتور العش فيمكن قبولها كتعليل لانتشار مذهب الجعد في الجزيرة دون غيرها من المناطق الاسلامية . بيد أنها تنتهي إلى تقرير جبرية مروان لأن الجعدي جبري ، ومروان ينسب إليه .. ولكننا لا نرى ذلك لأن جميع أقوال مروان وتصرفاته التي عثرنا عليها ليس فيها ما يدل عند التحليل على أن مروان كان جبري المذهب ..

وهذا ما يدفعنا إلى تأييد ما ذكره ولهاوزن من أن مروان لم يتبع مذهباً اعتقادياً بل اعتبارات سياسية ..

والذي يدعم هذا الرأي أن موقف مروان من يزيد بن الوليد ومن لاذ به إنما أملته ظروف سياسية خاصة ، فهو قد تقرّب إلى الناس بالانتقام من يزيد . فقد كان الناس يأخذون على يزيد ميله إلى المعتزلة التي بلغت مكانة هامة في تسيير أمور الدولة كما رأينا آنفاً .

وقد ذكر بعض المؤرخين أن المتأخرين من الصحابة كعبد الله بن عمر ، وجابر بن عبد الله ، وأبي هريرة ، وابن عباس ، وأنس بن مالك ، وعبد الله بن أبي أوفى ، وعقبة بن عامر الجهني ، وأقرانهم قد أوصوا أخلافهم بأن لا يسلموا على القدرية ، ولا يصلوا على جنائزهم ، ولا يعودوا مرضاهم[٢] .. ولا شك أن هذه الوصية من هؤلاء الأجلاء من الصحابة كان لها أثرها في نفوس الأمة التي نقمت على يزيد لتقريبه المعتزلة ، واعتماده عليهم .. وتقرّب مروان من الناس لا يتم إلا إذا استغل مثل هذه الكراهية في الناس للقدرية .. وهكذا فعل .

* * *

(١) في ترجمة هذا الاسقف انظر : المنجد .

(٢) البغدادي ١٥ .

مروان القائد

كان المارشال فوش يقول : إن الجيش الذي يريد أن يفوز بالنصر لا بد أن تتوفر لديه عوامل من الدرجة الأولى أهمها عامل القيادة . وإن الرجل الذي يتولى إدارة الحركة لا بد أن يكون ذا موهبة خاصة هي القدرة على القرادة[(١)].

ولقد كان مروان رجل حرب من الطراز الأول ، بل قائداً من أعظم القواد توفرت لديه عناصر القيادة في أبهى صورتها ، وأتمّ معانيها .. جرّب الميدان، وجرّبته المعامع ، فكان فارسها المجلّي ، وقائدها الهمام ، كأنما فطر على النضال. فيه شجاعة ، وصبر على القتال ، وجلد ، ومتانة أعصاب عنـدما يحمى وطيس الحرب ، ولديه مرونة في التخطيط الحربي يختار منه ما يناسب جو كل معركة.. كل هذه الصفات أكسبته صفة القائد العظيم ..

* * *

كان رجلاً ضخم الجثة ، أبيض ، أشهل ، مشرّباً بحمرة ، ربعة الجسم[(٢)] وكان محباً للحركة ، والأسفار[(٣)] .. مما يدل على أن ضخامة الجثة لم تكن وليدة ترهّل وإنما تشير إلى مقدرة جسدية هائلة قادرة على تحمل أعباء الحرب..

ظهرت عليه علائم النبوغ المبكر في ميدان الحرب ، فقد ذكر بعض المؤرخين أن مروان غزا سنة ١٠٥ على الصايفة اليمنى[(٤)] ، فافتتح نونية من أرض الروم ناحية كمخ[(٥)] . وإذا عرفنا أن هذه الغزوة الموفقة كان مروان قائدها البارع ،

(١) نقلا من كتاب المثنى بن حارثة الشيباني ص ١٦١ .
(٢) ابن عساكر ١٦/١٩٢ (١) الكامل ٤/٢٣٣ اخبار الدول ١٣٢ .
(٣) ابن عساكر ١٦/١٩٤ (٢) .
(٤) الصايفة اليمنى أي بر الاناضول من جهة البلاد الداخلية .. ابن كثير ٩/٣٠٣ الحاشية...
(٥) ابن عساكر ١٦/١٩٢ (١)

وعمره لا يزيد عن تسع وعشرين سنة[١] .. أدركنا نبوغه المبكر في ساحة الحرب.

ولعل الفضل الأول في تدريب مروان على الحرب والفروسية والقيادة يرجع إلى والده البطل محمد بن مروان ..

* * *

كان على جانب كبير من الثقافة العسكرية .. فقد كان رغم عصره المليء بالفتن والحروب ، يديم قراءة سير الملوك وأخبارها في الحرب[٢] ..

كان شجاعاً .. وما أظن إلا أن الحروب التي خاضها بنفسه ، والتي لم ينهزم فيها منذ حداثة سنه ، هي أكبر دليل على هذه الشجاعة .. بيد أن الشجاعة الحقة لا تكون في وقت القوة وتسلسل الفوز والظفر فحسب ،وإنما تكون متجلية في أسمى مظاهرها حين يكون الانسان في حالة من الضعف ، والهوان ، ومع ذلك يحتفظ بنفسه عزيزة كريمة .. هذه هي الشجاعة الحقة .

حين ذهب مروان إلى قرية بوصير بوغت بالخيل تحدق به من كل جانب ، فاستل سيفه ، وبقي يقاتل حتى قتل[٣] . وكان من كلامه قبل أن يقتل « إن الجزع لا يزيد في الأجل ، وإن الصبر لا ينقص الأجل » .

وكان يتمثل بهذين البيتين :

ذلُّ الحياة وهول المماتِ   وكلاً أراه وخيماً وبيلا
فإن كان لا بد من ميتةٍ   فسيري إلى الموت سيراً جميلا[٤]

وقد عرض عليه أحد مستشاريه بعد أن ظهرت راية بني العباس في خراسان أن يتزوج إحدى بناته من إبراهيم بن محمد فقال له : أشرت والله بالرأي ، ولكن

(١) ولد سنة ٧٦ هـ كما مر آنفا ص ٦٠ .
(٢) المسعودي ٣/٢٥٦ .
(٣) الامامة والسياسة ٢/٢٢٩ شذرات ١/١٨٣-١٨٤ .
(٤) الامامة والسياسة ٢/٢٢٨-٢٢٩ .

والله السيف أهون من هذا[1] •• وأشار عليه كاتبه عبد الحميد بنفس الرأي ، فأبى ، وقال : والله إني لأعلم أن الرأي فيما تقول ، ولكني أكره أن أطلب النصر بأفراح النساء[2] •

وقد بلغت به الرجولة والإباء الذروة عندما أوصى خادمه حين كان في بوصير أن يضرب رقاب بناته ، ونسائه بعد موته[3] •• حتى لا يلحقهن العار •• وكأنه كان يعرف ما سيكون موقف بني العباس من أسرته •• وقد صدق الفراسة •• ونحن سنرى في فصل قادم كيف كان موقف بني العباس من بني أمية •

* * *

نحن في عرضنا لجانب من أهم جوانب شخصية مروان لن نحصي معاركه كلها لأننا إذا عرفنا مواقعها فلا نعرف تفصيل حوادثها ، ولا إشارة لخطة بارزة فيها ، وهذا ما يجعلنا نستنتج من بعض معاركه ما يشير إلى عبقريته العسكرية •

حرب الاعصاب

لقد عرفت السنوات الأخيرة حرباً عالمية جاءت بكل فاتك من السلاح المادي ، وأتت إلى جانب هذا السلاح بسلاح آخر له مكانته ، وخطورته ، هو حرب الأعصاب ، حرب الدعاية والإشاعة ، الهدف منه إلقاء الرعب في صفوف العدو ، وهذا ما يسمى بالحرب النفسية ••

عرف مروان هذا السلاح واستعمله وطبقه أحسن تطبيق •• ونحن ننقل وصف معركة حية تؤكد ما ذكرناه ••

« كتب مروان إلى صاحب الخزر يعرض له بالصلح • فوجّه صاحب الخزر وفداً إلى مروان ، ومروان يعرض الخيول ، ويعطي الحيسات ، ويتجهز لأمره ، ويحضرهم مجلسه ، ويقرب منهم ، ويسمعهم ما يحبون •• حتى إذا فرغ ، فلم

---

(١) تاريخ الاسلام ٣٠٠/٥ •
(٢) الوزراء والكتاب ٧٢ •
(٣) المسعودي ٢٦١/٣ •

يكن إلا الشخوص أظهر لوفد الخزر الحسبة ، فأغضبهم ذلك ، فأسمعوه ، فأمر بحملهم على مركبهم من البريد على طريق الباب ، وهي تدور ، ولم يأذن لهم أن يدخلوا من باب اللان . وقال لهم : أعلموا صاحبكم أني قد أذنته بحرب ... فمضى الوفد إلى الباب . ودخل من باب اللان . وقدموا على صاحبهم فأخبروه أنه تجهز بجهاز لم يروا مثله ، وأعد جمعاً لم يُر مثله . وقد أذنك بحرب ... قال : وجاء الخبر أن مروان قد دخل عليك . فجمع أهل مشورته ، وطراحيته ، فقال: ما ترون . وما تقولون ؟ قالوا : إن مسلمة بن عبد الملك أذنك بحربه ، وتصرع في بلاده حتى جمعت له ، وأن هذا قد أعزك فقدر حقك ، إن أنت سرت إليه بسن حضرك هزمك . وبلغ منك . وإن أنت أردت أن تجمع له لم يجتمع لك جنودك ثلاثة أشهر ، وإلى ذلك ما قد بلغ منك ، ومعك . فالرأي أن تلحق بكورة كذا وكذا من أقصى بلادك ، وتدعه في البلاد يبلغ منها ما بلغ .. قال : فقبل رأيهم ... »[1] .

لنتأمل هذا النص .. نجد مروان قد احتفظ بوفد صاحب الخزر ، حتى أظهر لهم قوة جيشه ، وخيله ، وعرض قوته بين يديهم ، ثم انتهرهم ، وسيّرهم بدرب معين ، حتى إذا مثلوا بين يدي صاحبهم أخبروه بجهاز جيش مروان الذي لا قِبَل له به ، ثم صرحوا برأيهم بالانسحاب إلى أقصى البلاد .. وهكذا كان .

* * *

ومرة أخرى تفعل حرب الأعصاب فعلها . فقد مر بنا كيف أن ثابت بن نعيم الجذامي أفسد جند مروان من أهل الشام سنة ١٢٦ هـ ، وأجمع هؤلاء على حربه[2] . وعندما التقى مروان بجيش ثابت أمر منادين ينادون جيش ثابت من الميمنة والميسرة والقلب : يا أهل الشام ما دعاكم إلى الانعزال ؟ وما الذي نقمتم عليّ فيه من سيري ؟ ألم ألِكُم ما تحبون ؟ وأحسن السيرة فيكم ، والولاية

(١) ابن عساكر ١٩٢/١٦ (١) والنص له . الكامل ٢١٦/٤ .
(٢) انظر ما سبق ص ٣٥-٣٦ .

عليكم ؟! ما الذي دعاكم إلى سفك دمائكم ؟! فأجابوه : بأنا كنا نطيعك بطاعة خليفتنا ، وقد قتل خليفتنا ، وبايع أهل الشام يزيد بن الوليد فرضينا بولاية ثابت ، ورأسناه ، ليسير بنا على ألويتنا حتى نرد إلى أجنادنا . فأمر مناديه فنادى: أن قد كذبتم ، وليس تريدون الذي قلتم ، وإنما أردتم أن تركبوا رؤوسكم فتغصبوا من مررتم به من أهل الذمة أموالهم ، وأطعمتهم ، وأعلافهم وما بيني وبينكم إلا السيف حتى تنقادوا إليّ ، فأسير بكم حتى أوردكم الفرات ، ثم أخلي كل قائد وجنده ، فتلحقون بأجنادكم . فلما رأوا الجد منه انقادوا إليه ، ومالوا له ، مما مكّنه من ثابت بن نعيم وأولاده[1] ..

لقد أغنى الكلام عن السيف .. كلمات أمر مروان بأن ينادى بها تجاه جيش متمرد مستعد أدت إلى تفتيت ذلك الجيش ، وتسليم قائده إلى مروان دون حرب ، أو قتال .. وما ذاك إلا الرعب الذي ألقاه مروان في قلب الجيش.

حدث مثل ذلك مرة أخرى عندما تمردت عليه حمص سنة ١٢٧ ، وكانت مركزاً هاماً لبني كلب ، وكان أهلها قد أغلقوا أبوابها وردموا خلفها من الداخل وهم على أتم الاستعداد لقتاله . ولم تكد خيله تحدق بالمدينة ،وتقف قرب أبوابها ، حتى أرسل منادياً ينادي أهل حمص : ما دعاكم إلى النكث ؟ فأجابوا: إنّا على طاعتك لم ننكث . فقال لهم : فان كنتم على ما تذكرون فافتحوا ... ففتحوا الباب[2]..

كان مروان يحاول إلقاء الرعب في قلوب الناس بشتى الوسائل .. ففي سنة ١١٨ هـ غزا في بلاد الخزر ، وتمكن من قتل خصمه ورتيس ، فقطع رأسه ، ونصبه مروان لأهل قلعة ورتيس الذين بقوا على مقاومة مروان مدة من الزمن. وعندما رأوا رأس ورتيس معلقاً نزلوا على حكم مروان ، فقتل المقاتلة وسبى الذرية[3] ..

---

(١) الطبري ٥/٥٩٤ ـ ٥٩٥ الكامل ٤/٢٧٧ـ٢٧٨ .
(٢) الطبري ٥/٦٠٨ .
(٣) ابن عساكر ١٦/١٩٢ (١)..

وظل اسم مروان مقروناً بالرعب حيثما سار وأنّى اتجه • فما نزل بلدة غازياً إلا وسارعت بلاد أخرى لمصالحته • فقد نزل مــرة كيراز ، فصالحته منطقة طبرستان وقيلان[1] ••

عرفت منطقة الخزر وبلاد الترك والصقالبة والروم جولات موفقة جــداً لمروان طيلة مدة ولايته دون أن يهزم في معركة واحدة منها قط[2] • وكان لهذا أكبر الأثر أيام الفتن الداخلية ••

عاش مروان أيام خلافته يقسع فتنة هنا ، وثورة هناك ، لا يكاد يستقر له قرار دون أن يتحرك أي عدو من أعدائه من الخارج •• حتى الروم لم يتحــركوا قيد شعرة نحو البلاد الاسلامية • ونحن نعرف كيف أنهم بعد اندحارهم من ديار الشام كانت أعينهم تتطلع مترقبة كل فرصة تسنح ••

تحركوا أيام عبد الملك بن مروان مستفيدين مــن الفتن الناشبة في الدولة الأموية بين الشام والعراق والحجاز ، فاضطر عبد الملك لمهادنتهم ، ودفع جــزية لهم بلغت ألف دينار في كل يوم[3] •

أما في عصر مروان فان التاريخ لم يذكــر أي تحركات طيلة خلافته للروم • رغم أن بعض المؤرخين في حديثه عن مروان ذكــر أن « الروم قد استفادوا مــن الحرب الأهلية بين العرب فوسعوا حدودهم في الشرق »[4] •• فإذا كان هــذا المؤرخ يقصد شرق الدولة الرومية خارج الأراضي الإسلامية ، فهــذا لا يعنينا •• أما إذا كان يعني به التوسع في الشرق ضمن الأراضي الإسلامية فهذا غير صــحيح •• لأن المؤرخين القدامى ، كالطبري وأمثاله ، لم يذكروا أي اعتداء مهما كان ،

---

(١) ابن عساكر ١٦/١٩٢ (٢)•

(٢) انظر ـ اذا شئت ـ بعضها على سبيل التعداد : الطبري ٥/٤٣١ ، ٤٨١ـ٤٨٢ الكامل ٤/٢٤٥ أبن عساكر ١٦/١٩٢ (١)ـ١٩٢ (٢) واليعقوبي ٢/٣١٨ و ٣٢٩ شذرات ١/١٥٣ و ١٥٦ •

(٣) ابن خلدون ٣/٨١ •

(٤) ولهاوزن ٣١٣ حاشية رقم ٢٧ •

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فإن المؤرخ صاحب هذا القول لم يذكر لنا المصدر الذي اعتمده ، كما لم يذكر نوع هذا التوسع ولا كيف جرى ..

ولعل هذا المؤرخ اعتمد في ذلك ما ذكره ابن الأثير من أن الروم خربت حصن ربطرة الذي كان افتتحه حبيب بن مسلمة الفهري أيام مروان[1] .. إلا أن هذا الخبر لا يصلح مستنداً للنتيجة التي انتهى إليها ذلك المؤرخ ، لأن ابن الأثير قال إنه لم يعلم تواريخ حوادثه ، وقد ساقه في حوادث سنة ١٢٥ هـ ، وعدم تحديد التاريخ بدقة يجعل الرواية قابلة للاحتمال .. هل جرى التخريب في هذا الحصن أيام ولاية مروان أم أيام خلافته ؟. وإذا كان في أيام الخلافة ، فهل كان قبل معركة الزاب ، أم بعدها ، وهزيمة مروان ، وفراره إلى مصر لا حول له ولا قوة ؟.. وقد انفرد ابن الأثير بهذه الرواية ، ولو كانت صحيحة لتلقفها أعداء مروان كي ينالوا منه ، وما أكثر هؤلاء الأعداء ، ولو كانت هذه الرواية حقيقية لتابع الروم الاعتداءات ، واحتلوا منطقة أو مناطق ، ولم يكتفوا بحصن صغير لا يُعد احتلاله نصراً مؤزراً ولا سيما أن كل يوم من خلافة مروان يأتي بفتنة جديدة لم تكن بالأمس ، أو يُقوي فتنة كانت قائمة ، ويشد من ساعدها .. وبقي الأمر على ذلك حتى انتهت الدولة الأموية بنهاية مروان ..

* * *

لم يتحرك الروم إذاً طيلة خلافة مروان ، وما ذلك إلا للرعب الذي تركه يوم أن كان والياً في قلب الترك والروم والخزر[2] .. هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن مروان قد اتخذ الاستعداد اللازم لصد الغزو حال وقوعه[3] ..

ظهر أثر موقف الروم الذي كان جلياً واضحاً إثر مقتله . إذ لم يكد عام ١٣٣ للهجرة يهل حتى تحرك ليون بن قسطنطين ملك الروم ، ونزل ملطية ، وألح على

(١) الكامل ٣٤١/٤ ومثل ذلك جاء في الشذرات ١٩٠/١ .
(٢) شذرات ١٥٨/١ .
(٣) الطبري ٥٩٣/٥ الكامل ٢٧٧/٤ .

حاميتها المسلسة بالقتال حتى سلمتها بالأمان . فهدم المدينة ، وأجلى المسلمين عنها، وأرسل معهم عسكراً حتى يبلغوهم مأمنهم(١) .. ولم يتسكن المسلمون من استعادة ملطية ثانية إلا سنة ١٣٩ هـ(٢) .

* * *

إن رهبة مروان قد تسربت إلى نفوس الخوارج ، وهم من نعرف فرسان العرب وأسودها ، فعندما توجه مروان بنفسه إلى حرب الضحاك بن قيس الخارجي، والتقى الجيشان بنصيبين أشار أمراء الضحاك عليه قبل أن يبدأ الالتحام المباشر أن يتقهقر(٣) ..

* * *

بينه وبين جنــوده

إن المعركة لا يربحها القائد بشخصه فقط ، بل لا بد أن تكون صلته بجنوده على أحسن ما يرام . إذ متى شعر الجند بأن قائدهم يمتاز منهم بمعاملة خاصـة تسربت إلى نفوسهم نسائم الشك بصدق طاعته والإخلاص له..ولاشك أن مروان كان على صلة حسنة بجنوده ، يؤكد هذا المعارك العديدة التي خاضها . والمكللة بالنصر والفخار ..

كان إذا وعد جنده وعداً وفى بذلك . قال مرة للجيش المتمرد مع ثابت بن نعيم بأنه سيلحقه بأجناده ، ولم يكد يتم استسلامهم إليه ، وعودتهم إلى طاعته حتى أمرهم باللحاق بأجنادهم(٤) .. كان يحرص على تنمية الروح المعنوية في جنوده . ويقطع دابر كل من يرتكب ما يؤثر في تلك الروح .. في معركته مـع الخيبري الخارجي بعث أحد كُتَّابه وهو محمد بن سعيد إلى الخيبري وحينما بلغه أن هذا

---

(١) الكامل ٣٤١/٤ شذرات ١٩٠/١ .

(٢) الكامل ٣٥٩/٤ شذرات ٢٠٧/١ .

(٣) شذرات ١٧٤/١ .

(٤) الطبري ٥٩٥/٥ الكامل ٢٧٨/٤ .

الرسول قد مالأ الخوارج ، وانحاز إليهم أتى به ، فقطع يـده ، ورجله ولسانه[1] ولا نستغرب هذا فهو في ميدان قتال ولا جزاء للخيانة إلا القتل ..

كان يستشير جنوده ، ويستمع إليهم ، ويقبل نصحهم رغم ما نعرفه فيه من اعتداد بالنفس شديد .. ففـي إحدى معاركه في بلاد الخزر اجتاز بجنـوده نهراً يقال له نهر أرم يشبه نهر دجلة . وظل يساير مجـراه متوغلاً في البلاد مظفـراً حتى طلـب منه بعض جنوده أن يجتاز مخاضة ، ويرجع ، حتى لا يؤخذ على حين غرة ، فقبل رأيهم حتى أجاز بهم النهر راجعاً[2] .

كان حريصاً على سمعة جنوده . ففي طريقه إلى دمشق قادماً مـن الجزيرة ضبط جنده في سيره ، فلم يستطع أحد منهم أن يشـذ ، أو يظلم أحداً من أهـل القرى ، وكان الجند لا يأخذون من أحد شيئاً إلا بثمنه[3] .. وفي ذلك ما فيه من دقة في العمل ، وحرص على أن يتمتع الجيش بالاحترام ..

ومن مزايا مروان أنه كان شديد الحرص أيضاً على دفع أعطيات الجنود ، وما يستحقون دون تأخير ، أو تسويف[4] ..

بكل هذه الأعمال كسب مروان محبة جنوده ، فكان ذلك من العوامل المهمة التي مهدت له الظفر في جميع المعارك ..

* * *

(١) الطبري ٦/١٧

(٢) ابن عساكر ١٦/١٩٣ (١).

(٣) الطبري ٥/٥٩٥ .

(٤) الطبري ٥/٥٩٥ ابن عساكر ١٦/١٩٣ (٢) ..

الخطة الحربية

تطورت آلة الحرب وما زالت تتطور باستمرار مستفيدة من كل حدث علمي ، بيد أن آلة الحرب ليست المقياس لمعرفة العبقرية العسكرية في كل قائد..

لقد كان هانيبال عبقري الحرب ، ومن القواد العالميين في تاريخ البشرية لا بآلة حربه ، بل بخطته المحكمة ، والتي كان يقود فيها جيوشه من نصر إلى نصر .. اجتاز جبال الألب المنيعة ، فجاء بعده بمئات السنين نابليون بونابرت ، واستفاد من تلك الخطة وسلكها عندما تسلق تلك الجبال ..

إذاً هناك الفكر المدبّر ، والخطة الحربية الباقية : وهي أهم شيء في ميدان الحرب ..

* * *

ومما يؤسف له أشد الأسف أن مؤرخينا القدامى لم يعيروا هذه الناحية بالنسبة لمروان أي اهتمام . فتراهم يجمعون على أنه رجل حرب من الطراز الأول ، فإذا أردت أن تفتش عن دليلهم لم تجد شيئاً سوى اسم المعركة ونتيجتها فقط .. أما كيف كان يقود الجيوش ، وما عدد جنده ، وجند عدوه ، وما هي الخطوط الكبرى للمعركة ... كل هذا لا نجده عند أحد من المؤرخين الأقدمين ولا عند شيخهم الطبري(١) ..

* * *

(١) ذكر الطبري في حوادث سنة ١٢٠ هـ هذه العبارة « غزوة مروان بن محمد ارض الترك » . ولم يذكر أكثر من ذلك ٥/٤٦٥ .

وفي بحث الخطة الحربية نوضح النقاط الآتية : التعبئة . الاسرار الحربية . القيادة . الهجوم . خفة الحركة ..

آ ـ **التعبئــــة :**

كانت تعبئة الجيش عند مروان تقوم على أساس الكراديس ... وقد ذكر العلامة الكبير المرحوم محمد كرد علي أن « مروان هو أول مـــن أبطل الصف في الحروب وصار إلى التعبية كراديس ومن هنا تنوسي قتال الزحف »[1].

ونحن لا نوافق المؤرخ الكبير ، فلدينا من المصادر ما يؤكد أن العرب كانت تعرف في حروبها الكراديس قبل مروان ..

في معركة اليرموك « خرج خالد بن الوليد رضي الله عنه في تعبية لم تعبهـــا العرب قبل ذلك . وليس تعبية أكثر في رأي العين من الكراديس (الفرق) ، فجعل القلب كراديس ، وأقام فيها أبا عبيدة ، وجعل الميمنة كراديس ، وجعل فيها عمرواً، وشرحبيل ، وجعل الميسرة كراديس ، وأقام فيها يزيد ، وجعـــل على كل كردوس رجلاً من الشجعان .. »[2] . وكذلك عرف الخوارج طريقة الكراديس قبـــل مروان .. ففي معارك شبيب بن يزيد الخارجي زمن الحجاج بن يوسف نجده في معركة من معاركه الكثيرة يقود جنده على شكل ثلاثة كراديس[3] ..

وفي معركة بين جيش الحجاج بقيادة الحارث بن عميرة ، وبين الخوارج بقيادة صالح بن سرح أمير الصفرية كان صالح قد جعل أصحابه ثلاثة كراديس ميمنـــة وقلب وميسرة[4] ..

---

(١) خطط الشام ٨/٥ وقد جاء في الكتاب : مروان بن الحكم .. ولعل مصدره ماورد في مقدمـــة ابن خلدون من أن : أول من أبطل الصف في الحروب ، وصار الى التعبئة كراديس مروان بن الحكم في قتال الضحاك الخارجي والخيبري بعده (ص ٢٧٣) وهذا خطا ، وصوابه مروان بن محمد ،لان مـــروان الجد لم يشتهر بالحرب ، وان قتال الضحاك والخيبري لم يكن الا في عهد مروان الحفيد (ص ٤٠ وما بعدها من هذا الكتاب) .

(٢) اتمام الوفاء ٥٩ .

(٣) ابن خلدون ٣/٣٤٠ .

(٤) ابن كثير ٩/١٣ حوادث سنة ٧٦ هـ.

إذاً فالعرب في حربها كانت تعرف الكراديس ..

ونحن مع ذلك نقول إن مروان اشتهر بطريقة الكراديس أكثر من أي قائد عربي قبله . وسبب شهرته ترجع إلى كثرة اعتماده على الكراديس . وكثرة معاركه ..

ويظهر أن الكراديس قبل مروان كانت تتألف من أفراد قبيلة واحدة ... أي أن كل قبيلة تشكل كردوساً واحداً مستقلاً عليه رئيس القبيلة .. فهذا علي ابن أبي طالب رضي الله عنه رغب في معركة صفين أن يجعل جنده على شكل كتائب ، كل كتيبة تتألف من أفراد قبيلة واحدة ، وأمر كل قبيلة أن تكفيه أختها من أهل الشام إلا أن تكون قبيلة ليس منها بجيش الشام أحد فيصرفها إلى قبيلة تكون بجند الشام وليس منها بالعراق[1] ..

أما مروان فقد جعل الفرقة التي هي العمود الفقري للجيش مكان الفرقة التي كانت قائمة على القبيلة .. فالفرقة في جيش مروان لا تعني تجمع أفراد قبيلة واحدة ، وإنما هي مجموعة أفراد من قبائل عدة . وظهر على هذه الفرق « قواد محترفون مهنتهم القيادة سميت الفرق بأسمائهم حيناً كالوضاحية ، والذكوانية، نسبة إلى الوضاح . وإلى مسلم بن ذكوان .. »[2].

وهناك استنتاج آخر نحب أن نقف عنده ، يتلخص في أن الكراديس قبل مروان رغم قلة اللجوء إلى تأليفها في القتال ، كانت تقاتل كلها دفعة واحدة ... وطريقة القتال هذه تنهك الجيش بكامله ، فإذا تعرض لكمين مثلاً يمكن أن يُقضى عليه ..

أما مروان فإن الأمر عنده مختلف تماماً .

ولئن كانت طريقة الصف أو الزحف صالحة في ظرف أرضي معين يتمثل في

---

(١) تاريخ العراق ٤٧ نقلا عن الطبري .

(٢) بروكلمان ١٩٧/١ ولهاوزن ٢٩٧ العميد العش ٢٩٣ .

سهل فسيح ، ومرمى متسع : فإن هذه الطريقة لا تصلح في أرض جبلية ، وعرة المسالك ، أو في أرض ذات صخور قاسية .. وهنا تبدو عبقرية مروان .. فأرمينية ذات جبال عالية وفيها شعب محافظ على قسط من الاستقلال والشخصية تجاه جيرانه الأقوياء ، وهو فخور بذلك ، وباعتماده على نفسه بالدفاع عن أراضيه[1]. شعب هذا وصفه ، وأرض هذه طبيعتها ، من المتعذر أن يقاتل فيها جيش على طريقة الصف ، لأن ميدان الحرب ضيق جداً ، وغير ملائم . وكذلك لا يمكن أن يقاتل فيها الجيش المنظم بطريقة الكراديس إذا كان يحارب دفعة واحدة ، لأن الأرض ذات المسالك الوعرة يمكن أن تكون مرتعاً مناسباً للكمائن المفاجئة . إذاً فما على مروان ، وهو القائد العبقري ، إلا أن يختار وسيلة تعينه على الظفر في تلك الأرض الوعرة ، وعلى ذلك الشعب المناضل . وهذه الوسيلة هي طريقة الحرب بالكراديس ، لا دفعة واحدة ، بل أن يخرج كردوس للقتال حتى يتعب ، فيرجع ليحل محله كردوس لم يباشر القتال قبلا[2] .. وهكذا . وبهذه الوسيلة يمكن للمعركة أن تستمر بضعة أيام متواصلة يهلك فيها جيش العدو الذي يضطر للصمود في وجه الجحافل المتوالية بينما يكون الجند المهاجم في أتم راحة ، لأنه بمجرد أن يتعب كردوس يتقدم كردوس مستريح ليحل محله ..

نحن نلحظ إذاً كيف أن نظام الكراديس مفخرة من مفاخر مروان العسكرية[3] ..

* * *

تتساءل الآن : كم عدد جنود كل كردوس ؟..

عرفنا أن كل كردوس في جيش سيف الله في معركة اليرموك كان ألف رجل[4]. أما في جيش مروان فإني لم أعثر على تقدير صحيح له .. فهو ألف أو ألفان عند

---

(١) ا. سبيديو ١٤٣ .
(٢) العميد العش ٢٩٣ ولهاوزن ٢٩٧ .
(٣) ولهاوزن ٢٩٧ .
(٤) اتمام الوفاء ٥٩ .

بعض المؤرخين[١] .. وعند غيره أن الكردوس يتألف من ثمانية وعشرين ومئة من الجنود . وقد ذكر هذا المؤرخ ذلك بصورة عامة دون أن يحدد عصر معيناً[٢] .

ونحن لا نخمّن عدد أفراد الكردوس ولا عدد الكراديس في جيش مروان ، لأن مثل هذا يعود ، فيما نرى ، إلى طبيعة كل معركة وأهميتها ..

* * *

وأخيراً نذكر أن طريقة الكراديس ليست عامة في جميع معاركه بل كان أحياناً يلجأ لطريقة الصف ، والمناداة قبل القتال ، ذات الطريقة القديمة ، وكان يقسم جنده إلى ميمنة وميسرة وقلب[٣] . وربما كان سبب ذلك الأرض المتسعة التي كان يحدث فيها الصدام .

* * *

ب ـ الأسرار الحربية :

كان مروان يعرف أهمية الأسرار الحربية فهو يخفيها عن أقرب الناس إليه..

حدث أن كان مرة في جيش مسلمة بن عبد الملك ، ومسلمة والي أرمينية والجزيرة ، فقدم على هشام بن عبد الملك ، وحدثه بشأن مسلمة ومعاركه . واستأذن مروان من هشام بأن يوجّهه لحرب في منطقة بحر الخزر ، فقبل هشام، وأمدّه بجيش لجب . ومن شروط مروان على هشام أن لا يخبر الخليفة أحداً بذلك[٤] . وهكذا كان ..

* * *

ج ـ القيـــادة :

كان مروان يعرف مـدى تأثير شخصية القائد في جنـده . ولذا فانه كان

---

(١) المسعودي ٣/٢٦٠ في وصف معركة الزاب .
(٢) خطط الشام ٥/١٠ .
(٣) على سبيل المثال معركته مع ثابت بن نعيم سنة ١٢٦ . الطبري ٥/٥٩٤ .
(٤) ابن عساكر ١٦/١٩٢ (٢) .

يتقن اختيار القادة ، ويشرف على ولاته حين يسمون للقيادة أشخاصاً غير أكفاء ، فيأمر بتنحيتهم ..

أرسل مروان إلى يزيد بن عمر بن هبيرة واليه على العراق يأمره بالتحرك نحو خراسان لنجدة نصر بن سيار ، فلبّى يزيد الأمر ، وجمع جيشاً جعل على قيادته ابنه داود . وعندما علم مروان بذلك كتب إلى يزيد ينكر منه هذا العمل نظراً لحداثة سن القائد ، وقلة خبرته ، وأمره بحل عقدة لوائه ، وتعيين عامر بن ضبارة المرّي قائداً للجيش ، فامتثل يزيد للأمر[1] ..

* * *

د ـ الهجوم :

كان مروان يباشر الحرب حين يلتقي بعدوه ، عملاً بالقاعدة العسكرية الهجوم خير الدفاع . وهذا يلاحظ في أغلب معاركه . بينما كان جيش الاسكندر المقدوني لا يسير إلى قتال عدوه ، ومهاجمته ، وإنما كان يقف بلا حراك حتى يهاجمه العدو[2] . لما خالف سليمان بن هشام أمر مروان ، وتمرد في الرصافة بادره مروان بالسير إليه ، ولم ينزل حتى انتهى إليه ، فلم ينظره حتى واقعه ، وانهزم سليمان[3] ..

كان مروان في بعض الأحيان لايبدأ بالهجوم مباشرة،وإنما يعمد إلى حيلة.. فعندما يتقابل الجيشان يدعو أفرد الجيش المعادي إلى أمر من الأمور وينتظر فترة لعله يحسب خلالها أن هذه الفترة يمكن أن تفتّ في عضد الجيش العدو ، فيسهل النصر على مروان . في معركة عين الجر دعا مروان جيش دمشق إلى الكف عن قتاله وإطلاق سراح ابني الوليد وهما في سجن دمشق[4] ، وعندما لم يجبه أحد بدأ بالقتال عند ارتفاع النهار إلى العصر[5] .

---

(١) اليعقوبي ٣٤١/٢ .

(٢) انظر في وصف حركة هذا الجيش وطريقة قتاله خطط الشام ٤/٥ـ٥ .

(٣) الطبري ٦١٨/٥ .

(٤) الطبري ٥٩٧/٥ الكامل ٢٨٣/٤ .

(٥) الطبري ٥٩٧/٥ الكامل ٢٨٣/٤ .

وقد يعمد مروان إلى الحيلة لتطويق الجيش المعادي ، أو ما يسمى بعملية (الكماشة) . وملخصها أن الجيش يشاغل العدو بإحدى قطعاته ، وفي الوقت نفسه يفرز قطعة أخرى تتراجع نحو الخطوط الخلفية للعدو،ثم تنقض عليه بسرعة ، فتحدث فيه الاضطراب ، وهذه الخطة إذا أحكمت أدت إلى النصر الحاسم ..

في معركة عين الجر أمر مروان فرقة من خيله عددها ثلاثة آلاف بالتوجه إلى الخطوط الخلفية لجيش دمشق وقطع الأشجار وإشادة الجسور كي تتمكن من العبور إلى مؤخرة جيش سليمان الذي كان يحتمي في مؤخرته بنهر كبير . وقد فوجئت جيوش سليمان بالسيف يعمل في مؤخرتها ، وأدت هذه الحيلة إلى ربح المعركة بسرعة[1] . وربما ساعد مروان على اتقان عملية الالتفاف مرونة الحركة في جيشه بفضل تنظيم الكراديس وأسلوب قتالها .

مارس الحجاج نفس الخطة (الكماشة) ، مع عبد الرحمن بن الأشعث ، فكان من نتيجتها أن انهزم ابن الأشعث ، وقتل من جيشه أربعة آلاف رجل[2].

وربما استعان مروان بالمنجنيق في أثناء محاصرته لإحدى المدن .. حاصر حصن الكامل حيث اعتصم به جيش متمرد مبايع لسليمان بن هشام فدكه بالمنجنيق ، وكان ذلك سنة ١٢٧ هـ[3] . وفي نفس العام نزل حمص ، فحاصرها عشرة أشهر ، وكان ثمانون منجنيقاً تدك سورها دكاً[4] .. وكان أحياناً يلجأ إلى القتال من خنادق يحفرها في أرض المعركة ، كما حدث في المعركة التي دارت بينه وبين سليمان بن هشام في قرية تسمى تل منسى[5]..

---

(١) الطبري ٥/٥٩٧ الكامل ٤/٢٨٣ .

(٢) ابن خلدون ٣/١١١ .

(٣) الطبري ٥/٦١٩ .

(٤) الطبري ٥/٦١٩ .

(٥) الطبري ٥/٦١٩

وما صنعه مروان في عين الجر ، وفي تل منسَّى سبقه إليه غيره •• ففي الحرب التي دارت بين كسرى وبهرام في أرض النهروان عسكر كل واحد منهما بأصحابه في ناحيته وخندق على نفسه،ثم إن بهرام عقد جسراً وعبر إلى كسرى[1].

قد يكون هذا من قبيل المصادفة •• وقد يكون مروان استمد هذا من معرفته بحروب الفرس معرفة وثيقة • وسواء كان هذا أم ذاك . فإن فيه مظهراً من مظاهر العبقرية العسكرية عند مروان ••

* * *

هـ ــ خفة الحركة :

هي ضرورة من ضرورات الحرب إذا توفرت أكسبت القائد ظرفاً مساعداً على الظفر •• فهو يستطيع بها أن يباغت العدو قبل أن يتم استعداده • ولا شك أن القائد الذي يفاجىء عدوه هو قائد محنك ••

كان مروان من هؤلاء القواد •• ونظرة واحدة إلى معاركه الجمَّة ، سواء أيام ولايته أم أيام خلافته ، أكبر شاهد على ما نقول ••

كان لا يرتاح من حرب حتى ينهض لحرب أخرى •• ونظرة إلى رقعة الأرض في الدولة الأموية وإلى أماكن قتاله وإلى وسائل المواصلات تعرفنا هذه الميزة بمروان ••

بويع بالخلافة بدمشق ، وعاد إلى حران ، وتحرك إلى حمص للقضاء على فتنة نشبت فيها ، ونقضت عهده ، وبيعته ، ثم عاد إلى دير أيوب ورجع بعدها إلى دمشق ، ثم قصد تدمر ، وانصرف إلى الرصافة ، ومنها إلى واسط ، وإلى قرقيسيا[2] . كل هذه التحركات كانت في تسعة أشهر من عام ١٢٧ هـ ، لأنه لم يلبث مرتاحاً في ذلك العام إلا ثلاثة أشهر[3].

---

(١) الاخبار الطوال ٨٦

(٢) تفصيل هذه الحركات يرجع اليها من شاء في الطبري ٥/٦٠٧ــ٦١٠ .

(٣) نفس المرجع السابق

ولكي يستفيد من خفة الحركة كان يعتمد على الخيل • فنرى أن الخيل دائماً في المقدمة ، وهي التي تباغت العدو[1] ، ثم إذا انتهت المعركة كان عليها أن تلاحق فلول المنهزمين من الجيش المعادي[2] •

ولعل سبب اعتماده على الخيل يرجع إلى طبيعة الأرض التي كان يقاتل فيها أيام ولايته ، حيث الأرض وعرة المرتقى ، ولايذللها إلا سنابك الخيل •

* * *

ز ـ خطة الانسحاب :

لقد كانت كل معارك مروان مظفرة ، والياً كان أو خليفة في أكبر دولة ، إلا في المعركة الأخيرة ، معركة الزاب القاصمة ، فقد وجدناه إثر الهزيمة يتراجع نحو مصر ، ويقوم بحرق جميع ما كان حوله من علف وطعام[3] حتى لايستفيد منه عدوه ، وهذا مايفعله قواد الجيوش الحديثة•

* * *

معاملة الاسرى :

لعل من مفاخر مروان العسكرية أنه كان يحسن إلى الأسرى ، ولا ينكل بهم إلا إذا كان في قتل بعضهم خير لمروان وجنده ••

في معركة عين الجر أسر نحو سبعة عشر ألفاً[4] جمعهم فأحسن إليهم ، وأطلق سراحهم ، وأعطى كل واحد منهم ديناراً ، وألحقهم بأهليهم[5] • ولم يقتل من هؤلاء سوى رجلين كانا فيمن سار إلى الوليد بن يزيد وولي قتله[6] •• وفي المعركة التي دارت بين مروان وبشر ومسرور ابني الوليد في حلب جرى أسر عدد كبير من جيش بشر ، فأعتقهم مروان ، ولم يمسّ أحداً بأذى[7] •• وليس في هذا

* * *

(١) كما في تمرد حمص سنة ١٢٧ الطبري ٦٠٨/٥ الكامل ٢٨٦/٤ •

(٢) كما في معركته مع سليمان بن هشام سنة ١٢٧ • الطبري ٦١٨/٥ •

(٣) الطبري ٩٥/٣ الكامل ٣٣١/٤ •

(٤) الطبري ٥٩٧/٥ الكامل ٢٨٣/٤ •

(٥) الطبري ٥٩٧/٥ •

(٦) الاسيران هما يزيد بن العقار والوليد بن مصاد الكلبيان • الطبري ٥٩٧/٥ الكامل ٢٨٣/٤ •

(٧) ابن عساكر ١٩٣/١٦ (٢)•

ما يستغرب ، فالفروسية عند العرب تأبى أن يُقتل الأسرى إلا بحالات نادرة .. وأين هذا مما صنعه نابليون عندما استسلمت إليه حامية يافا ، فأسرها ، وقتلها عن بكرة أبيها ، وادّعى يبرر فعلته أنه يعجز عن إطعامها !..

التطـــير :

كان نابليون ، وهو القائد الفذ ، شديد التطير[1] ، وكان مروان كذلك . فقد أهدى إليه أحد ولاته غلاماً أسود ، فقال مروان لعبد الحميد الكاتب : اكتب إليه فاذمم فعله . فكتب عبد الحميد : لو وجدت لوناً شراً من السواد ، وعدداً أقل من الواحد لأهديته[2] .

وفي معركة الزاب تحركت فوق جيش بني العباس غربان ، وحلّقت فوق الرايات السود ، فاجتمع سوادان ، فتطير من ذلك ، وقال لمن حوله : أما ترون السواد قد اتصل بالسواد ![3].

وعندما التجأ إلى قرية بوصير بعد هزيمته تطير من اسمها وقال : إنّا لله وإنا إليه راجعون فيها المصير إلى الله[4].

* * *

(١) قلب النسر ص ١٤١ و ١٨٥ .
(٢) الوزراء والكتاب ص ٨١ .
(٣) المسعودي ٣/٢٦٥ .
(٤) ابن عساكر ١٦/١٩٧ (١).

مروان السياسي

تتحدث في هذا القسم من الفصل عن بعد نظر مروان ، وعن وفائه السياسي، وعن صلته بالناس ..

* * *

بعــد النظــر

في سيرة مروان كلها تبدو هذه المزية .. فهو بعيد النظر جداً يحسب لكل أمر حسابه ، ويعرف نتائجه ، ويستعمل في سبيل تحقيقها كل وسيلة مسكنة . كان رجلاً مغموراً في جيش مسلمة بن عبد الملك ، كأحد الجند ، فأخذ يلفت النظر إلى نفسه بما أبداه من ضروب الشجاعة والإقدام ، حتى قال الناس : فعل مروان ، وصنع مروان ، ولا يذكرون مسلمة[1] .. وبعد أن أخذ اسمه يظهر على أفواه الناس ، وينتشر ، ويؤدي إلى التخفيف من ذكر قائد الجيش وشقيق الخليفة مسلمة ، توجّه مروان إلى هشام بن عبد الملك متخفياً عن قائده[2] وجرت بينهما محادثة لا بأس من عرضها ..

« لم يرع هشام بن عبد الملك وهو ينظر في شيء من ضيعته التي يقال لها الزيتون إلا ومروان قد خرج عليه لم يستأذنه ، ولم يعلم به حتى رآه ، فأفزعه ذلك ، وقال : ويحك مروان . قال : نعم يا أمير المؤمنين. قال[3] فردّد هذا القول مراراً . قال : يا أمير المؤمنين ، ضقت صدراً بما سأذكره لأمير المؤمنين . قال : فلم أر أن يكون في كتاب ، ولا أبوح به إلى أحد فترى فيه رأيك . قال : ولم ذاك ؟ قال : إنه قد كان من غزو صاحب خزر أمير المؤمنين والمسلمين

(١) ابن عساكر ١٦/١٩٢ (٢).

(٢) ابن خلدون ٣/١٩٦ .

(٣) أي الراوي وهو هنا مرزوق بن أبي الهذيل .

ما كان ، فساح في بلاده ، وقتل عامله ، وانتهك من حرمة الاسلام ما قد علمه أمير المؤمنين ، ثم قفل إلى بلاده ، وقد أبقى على المسلمين عارها ما كانوا • ثم كان من رأي أمير المؤمنين في توجيه مسلمة بن عبد الملك ما قد علمه أمير المؤمنين ، فوالله ما وطىء من بلادهم إلا أدناها ، وما صنع شيئاً • ولقد أخرجه كسعاً كالمنهزم ، فلا يزال عار ذلك فينا وفيهم ما كانوا • وذلك أن مسلمة لما رأى من جموعه ، وكثرة من معه أعجبه ذلك (يؤ) ــ هكذا ــ[1] لحربهم وتهديدهم بجموعه ، ثم أقام بعد كتابه نحواً من ثلاثة أشهر ، وقد جمعوا جمعاً لم يكن به طاقة • وقد رأيت أن يأذن لي أن أغزوهم غزوة أطأ فيها حريمهم ، وأنتقم للمسلمين منهم • فقال : قد أذنت لك •• قال : فأمدني عليهم بعشرين ومائة ألف فارس رامح • قال: قد فعلت وهم (أموك) ــ هكذا ــ[2] • قال : ويكتم أمير المؤمنين من خاصته وعامته ، فإني لو قدمت البلاد ادعت محاربة أمة من الأمم ممن خولنا عندهم• فإذا قدمت الجنود وفرغت من أمورهم اغترر بالدخول عليهم • قال : فافعل ••» فودعه وانصرف ، فلا يدري أحد ما كلمه به من ذلك[3] • وعلى إثر هذه المحادثة ولاّه هشام أرمينية[4] ••

وفي معركة عين الجر أطلق الأسرى ، وأكرمهم ، حتى إذا أتوا دمشق ذكروا حسن المعاملة ، فتخف معنوياتهم عندما يتصدى الخليفة لمروان حين يحاصر دمشق •• وقد كان الأمر كذلك إذ سرعان ما اضطر الخليفة إبراهيم إلى الرحيل عن دمشق ••

* * *

في هذا المجال نتساءل كيف فكر مروان بالوصول إلى الخلافة ؟••

نظر مروان بعد مقتل الوليد إلى الأسرة الأموية فرأى أنه لم يكن فيها رجل

---

(١) لعلها : لم يابه •

(٢) لعلها : آتوك •

(٣) ابن عساكر ١٦/١٩٢ (٢) والنص له ••• الكامل ٤/٢١٥-٢١٦ •

(٤) ابن خلدون ٣/١٩٦ الكامل ٤/٢١٦ •

له شهرته أو له شخصيته •• وهذا الإدراك الخاص دفعه . وهو الرجل الطموح، إلى التطلع للخلافة •• وكيف لا يكون كذلك . وهو الذي كان يعلم من أمور العاصمة أكثر من أقرباء الخليفة المقيمين فيها . كما أنه كان يرى مصير الدولة بأم عينيه ••

كتب إلى الغمر بن يزيد يحثه على المطالبة بدم أخيه الوليد • ومما جاء في هذا الكتاب قوله : فإني مطرق إلى أن أرى غِيَراً فأسطو بانتقام وأنتقم لدين الله المبتول . وفرائضه المتروكة مجانة ••

هو إذاً ينتظر اللحظة المناسبة لينقض •• وقد جاءت تلك اللحظة مع مقتل الوليد . فما عليه إلا أن يهب للمطالبة بدمه رغم أن شقيق الوليد ، وهو العباس، كان ما يزال حياً وهو أولى بذلك • فقد سمى مروان الوليد بأنه الخليفة المظلوم وقال : « أمري شبيه بأمر معاوية في طلبه لدم عثمان •• »[1] وكأني به عندما قال هذه الجملة يفكر بما انتهى إليه معاوية ، لقد صار خليفة للمسلمين بسبب مطالبته بدم عثمان ، وسيكون مروان كذلك خليفة ••وإلا فما وجه الشبه بينه وبين معاوية في مثل هذا المجال إن لم يكن غير ما ذكرنا ؟

* * *

الوفاء السياسي

كلمتان متناقضتان ولكثرة تداولهما بين رجال السياسة أصبحتا منسجمتين•

أما وجه التناقض ، فإن الوفاء ليس من لوازم السياسة ، ولا من صفات رجل السياسة المحترف إلا من عصم ربك ••

مروان لا شك يتصف بهذا الوفاء السياسي •• وتجلت هذه المزية في صلته بالخلفاء الذين عاصروه ••

---

(١) البلاذري ١٨٧/٥ •

ولئن عرضنا في الفصل الأول[1] هذه الصلة مجردة من كل تحليل فإننا تركنا ذلك إلى هذا الفصل لتعلقه ببحث الشخصية طالما أنه يظهر خاصة من خواصها وطبعاً من طباعها ..

مع هشام بن عبد الملك :

ذكرنا أن هشاماً هو الذي ولّى مروان أول ولاية له ، فهو إذاً مدين له بالفضل ، لأنه ساقه إلى أول درجة من درجات مجده ، وليس هذا بقليل .

وإذا أضفنا إلى هذا أن هشاماً يتمتع بمزايا خاصة قلما اجتمعت عند غيره ومن بينهم مروان ، تبين لنا البون شاسعاً بين هشام ومروان .. فالأول يتصدر السدة الأولى في أعظم دولة على ظهر الأرض آنذاك والآخر مغمور رفعه الخليفة إلى كرسي ولاية من أطراف تلك الدولة .

حتى إذا آذنت شمس هشام بالأفول ، ونودي بالوليد خليفة بعده ، لم يكتف مروان بالبيعة المجردة ، وإنما نمّقها بالنيل من هشام ، وفي هذا النيل إرضاء للخليفة الجديد الذي كان ناقماً على الخليفة الراحل ..

لقد فرح مروان بموت هشام وشمت به .. قال في كتاب البيعة للوليد « وكان من تفشي سكرة الولاية ما حمل هشاماً على ما حاول من تصغير ما عظم الله من حق أمير المؤمنين، ورام الأمر المستصعب عليه الذي أجابه إليه المدخولون في آرائهم وأديانهم ، فوجدوا ما طمع فيه مستصعباً ، وزاحمته الأقدار بأشد مناكبها .. » وفي عبارة أخرى وصف هشاماً بالظلم فقال : « فالحمد لله الذي اختار أمير المؤمنين لخلافته ، ووثائق عرى دينه ، وذبّ له عما كاده فيه الظالمون ، فرفعه ، ووضعهم .. » ونحن نعلم كيف أن هشاماً فكر بتنحية الوليد عن ولاية العهد لو وجد ابنه مسلمة أهلاً لها ..

---

(١) ص ١٩ وما بعدها .

وفي عبارة ثالثة نال من دين هشام .. فقال عنه : « فمــن أقام على تلك الخسيسة من الأمور أوبق نفسه وأسخط ربه » .

هشام إذاً عند مروان ظالم وسخط الله عليه .. لماذا ؟.. لأنه لم يكن راضياً عن سلوك الوليد .. ونحن نعلم أن مروان كان أدرى بسلوك الوليد من غيره ، ويعلم من هو هشام بن عبد الملك حزماً وتقىً وعدالة، إلا أن الوفاء السياسي هو الذي أملى عليه هذا النيل من هشام ..

* * *

مع الوليد بن يزيد :

من تأمل كتاب بيعة مروان للوليد ظن للوهلة الأولى أن مروان يكنُّ للوليد كل احترام .. ويؤكد هذا الظن ما أحدثته الأيام بعد ذلك من حوادث .. ولكن سرعان ماتذوب هذه النظرة الأولى إذا قرأنا وصف مروان للوليد «والله ما أصبحت أستزيد الوليد . لقد وصل ، وفوّض ، وأشرك في ملكــه ، ولكنني أشهد أنــه لا يؤمن بيوم الحساب.. » [1] .

إذاً .. الوليد لا يؤمن بيوم الحساب .. حتى إذا آن الأوان لأن يستغل مروان مصرع الوليد يعتبره شبيهاً بالشهيد الجليل عثمان بن عفان رضي الله عنه.. وما أبعد الشبه وأوسع البون ..

ونحن لا ندري هل كان الوليد ينظر إلى مروان نظرة تقدير أم لا ؟..

قال الوليد يصف مروان :

سقيم الصدر أو شكس نكيــد ... وآخر لا يزور ولا يـُـزار..

يعني بالسقيم الصدر يزيد بن الوليد وبالشكس هشاماً والذي لا يزور هو مروان بن محمد[2] ..

---

(١) من حديث بين مروان ومسلم بن ذكوان . الطبري ٥/٥٨٢ .

(٢) الاغاني ٦/١٠١ .

مع يزيد بن الوليد :

مروان بايع يزيد بالخلافة ، وقبض ثمن هذه البيعة ، ولاية واسعة لم تكن له قبلاً • وتلك يد ليزيد كان يجب أن تحفظ ، بيد أن مروان الذي أدى به وفاؤه السياسي إلى النيل من هشام أدى به أيضا إلى النيل من يزيد،فقد لقبه بالناقص•• وحالت وفاة يزيد المفاجئة دون إظهار ما كان يخفيه مروان له ••

* * *

والآن كيف نفسر هذه المواقف المتناقضة ؟••

إن السياسة هي التي أملت عليه هذه المواقف ، يضاف إليها طموحه بالحفاظ على منصبه إن لم يزد فيه سعة وأهمية •

وليس هذا بغريب على رجل اتخذالسياسة مهنة •• فقد عرفنا كيف أن السياسي الفرنسي الشهير تالليران قد أقسم يمين الولاء لأربعة عشر دستوراً[1] ، وأنه فاوض الحلفاء عندما أدرك بدء انهيار نابليون رغم أنه ما يزال وزيراً للإمبراطور • ومن أقواله عن اليمين بأنها بطاقة تخول السياسي الدخول للمسرح مرة ثانية •

مع الناس :

كيف كانت صلة مروان بالناس ؟ هل كان طاغياً أم ليس كذلك ؟•

إن المؤرخين الذين نعرف ، ومنهم من يكره مروان والدولة الأموية بحقد، لم يذكروا أن مروان كان جباراً في الأرض ، وفيه عتو وطغيان • وكيف يكون كذلك وليس في بني أمية أية خليفة وصف بالجور والطغيان •

كان مروان يريد أن يشاركه الناس في تعيين كبار موظفيهم ، ولو كان بعض هؤلاء ممن لعب دور الخيانة والخروج على الخليفة • فقدولّى ثابت بن نعيم

---

(١) الدكتور منير العجلاني : الحقوق الدستورية ص ٣٥ طبعة سنة ١٩٥٥ •

فلسطين بناء على طلب أهلها ، ونحن نعرف كيف انغمس ثابت في الفتنة ولعب دوراً كبيراً فيها قبل تعيينه وبعده[1].

وحين ولّى حوثرة بن سهيل على مصر طلب من أهلها أن يجمعوا رأيهم على قاض يقوم إلى جانب حوثرة ، فكان الفقيه الكبير والإمام الجليل الليث بن سعد رحمه الله ، فأمر مروان بتعيينه[2] .

كان مروان كريماً ليس للمال عنده حساب سوى أن يكسب قلوب الناس. قال عنه بعض المؤرخين « دعا إلى نفسه بالبيعة ، ووعد الناس ، فرضي به أكثر الناس لشجاعة كانت فيه وسخاء يوصف به .. »[3] .

بعد معركة عين الجر تقدم نحو دمشق وحاصرها ، وعندما طلبت منه الأمان أجابها إلى ما طلبت[4] ، وقام بإعطاء أهلها أعطياتهم ، ووضع لنفسه خطة يسير عليها تمثلت في رسالة قرئت في مسجد دمشق جاء فيها :

« أما بعد : فإن هذا الفيء من الله الذي فاءه على المسلمين بهم ، وجعل فيه حقوقهم وقوتهم وأوجب على واليهم حسن ولايته لهم ، وتوفيره عليهم تأدية إليهم . فأمير المؤمنين يجهد كل نفسه في جمعه ، واجتلابه نفسه ، وولده ، وأهل بيته ، وعماله عنه . بغيض إليه انتقاص شيء من حقوقكم ، وأطماعكم ، وتأخيرها عنكم في إبانها ما وجد إلى ذلك سبيلاً . وقد أمرنا لكم بعطاء فهو لكم ولعيالكم، فخذوا هنيئاً مباركاً لكم فيه . والسلام عليكم . »[5] . وكان مروان قبل قدومه قد أعطى أهل الجزيرة أعطياتهم[6] .

وفي إحدى السنين اضطر مروان أن يقطع العطاء عن أهل مصر ، فكتب إليهم

(١) راجع ما سبق ص ٣٦ .
(٢) ولاة مصر ص ١١١-١١٢ .
(٣) الامامة والسياسة ٢١٦ .
(٤) ابن عساكر ١٦/١٩٤ (١).
(٥) ابن عساكر ١٦/١٩٤ (١) واللفظ لابن حزم .
(٦) الطبري ٥/٥٩٥ .

معتذراً : « إني إنما حبست عنكم العطاء في السنة الماضية لعدوٍ حضرني . فاحتجت فيه إلى المال ، وقد وجهت إليكم بعطاء السنة الماضية[1]، وعطاء هذه السنة ، فكلوا هنيئاً مريئاً،وأعوذ بالله أن أكون الذي يجري الله قطع العطاءعلى يديه »[2].

إنه الحق يصل إلى أهله ، ولا بد ، فإذا اضطره ظرف الحرب إلى تأخير العطاء كان منه الاعتذار لا الجور ولا التهديد وهو قادر عليهما ولا شك.

هذه طبيعة أموية ، سياسة اللين مع الناس ما أمكن ، تمثلها شعرة معاوية الواصلة بين الدولة والناس . وأنّى للعديد من رؤساء الدول هذه القدرة على مسك الشعرة بروح الحذر والعطف والمحبة ؟..

* * *

قلنا إن مروان أجاب دمشق إلى الأمان ودخلها دون أن تظهر عليه علائم الانتقام ، ولم يقتل سوى رجلين ، ولكن هذا لا يعجب المؤرخ تيوفان ، فنراه يقول «إن مروان بعد أن استولى على دمشق أعدم عدداً من وجوه الناس الذين اشتركوا الوليد وولديه وشوّه أعضاء آخرين .. »[3] .

قال ولهاوزن معقباً على قول تيوفان : « وليس هذا القول صحيحاً كل الصحة . ولعل مروان عاقب بالواقع واحداً أو اثنين من قتلة الوليد الحقيقيين حين تمكن منهم ..»[4]. ومثل هذا لم تعرفه دمشق عند دخول عبد الله بن علي إليها.

* * *

كان مروان يسير مع الناس بلين يمكن أن يشبه الحزم . وقد صوّر مروان ذلك بقوله : « ليس من أهل هوى إلا قد أعطيتهم الرضا حتى أخبروني بذات

---

(١) لا استبعد ان تكون هذه السنة هي السنة ١٢٧ هـ ، وهي السنة الاولى من حكمه لانها حافلة بالثورات الداخلية في كل مكان .

(٢) ولاة مصر ص ٢١٧-٢١٨ .

(٣) مذكور في ولهاوزن ٣٠٠ .

(٤) ولهاوزن ٣٠٠

أنفسهم »[1] . وقد وصف مرة أخرى أهل ولايته فقال : « ومعي قوم أسكن الله طاعتي قلوبهم .. »[2] . ولم يكن بذلك مغالياً .

* * *

ولئن لم يحفل مؤرخونا بالحديث عن صلة مروان بالناس . شأنهم في ذلك شأنهم في بقية مزايا هذا الرجل ، فإن بعض النماذج الباقية تشير إلى ما نريد.

سأل مروان أهل الشام عن الأشخاص الذين يرغبون بأن يكونوا ولاة عليهم . فاختار أهل دمشق زامل بن عمرو الجبّراني ، وأهل حمص عبد الله ابن شجرة الكندي ، وأهل الأردن الوليد بن معاوية ، وأهل فلسطين ثابت بن نعيم الجذامي[3] .. فسمّاهم ولاة على تلك الأقاليم .. وهذا نوع من الشورى لم يسبق لأحد من الخلفاء ــ فيما أعلم ــ أن فعله .. وبهذا تقرب إلى الناس وماشى رغباتهم رغم أن في هذه الخطوة ما يخالف المصلحة العامة ، وعلى الأخص تولية ثابت بن نعيم وقد رأينا فيما سبق موقفه من مروان[4]..

ويعلل المؤرخ ولهاوزن عمل مروان بأن العرب منحوا أهل الأمصار السورية الأربعة : فلسطين والأردن ودمشق وحمص حق اختيار واليهم بأنفسهم[5] ، دون أن يذكر المصدر الذي اعتمده . ونحن نميل إلى أن الدافع إلى ذلك هو محاولة مروان التودد إلى الناس ، وظناً منه أنه بذلك يفوز بثقتهم .

* * *

كان مروان على علم بأحوال الناس وكانت له عيون تأتيه بكل ما يهم الدولة بصورة منتظمة ..

عثر أعوانه مرة على رسول أبي مسلم الخراساني إلى إبراهيم بن محمد يخبره

(١) الطبري ٥/٥٨٢ .
(٢) الطبري ٥/٥٨١ .
(٣) الطبري ٥/٦٠٧ .
(٤) ص ٣٥ وما بعدها من هذا الكتاب .
(٥) ولهاوزن ٣٠١ .

فيه خبره وما آل إليه أمـــره • فاطلع مروان على الكتاب ، وأمَّن الرســـول ، وأعطاه عشرة آلاف درهم كي يقوم بتسليم الرسالة إلى إبراهيم على أن يطلعه على جواب إبراهيم لأبي مسلم • وبالفعل أطلع مروان على كتاب إبراهيم لأبي مسلم • واحتفظ به ، وجابه إبراهيم به بعد أن اعتقله[١] ••

* * *

لقد استمر مروان في الحكم فترة طويلة بين الولاية والخلافة ، فهل أحسن الادارة أم لا ؟••

هذه نقطة لم يتعرض لها مؤرخونا القدامى وهم عمدتنا في البحث . ونحن سنلجأ إلى الاستنتاج •

كان مروان في أيام ولايته مشغولاً بالحروب ، فما ينتهي من حـــرب إلا ويستعد لأخرى •• ومعلوم أن الحرب تتطلب نفقات باهظة ،ولا سيما كـــون جنده محترفين ، ولهم رواتب ثابتـــة منتظمة ، وتكـرّر الحروب يفيـــد قدرة الولاية على إيجاد الموارد اللازمة لتغطية تلك النفقات • وكذلك يجب أن تكـــون تلك الموارد منتظمة تأتي في أوقات معينة وبجباية دقيقة •

وليست أيام خلافته بأحسن من أيام ولايته في هذا المجال • فقد جابه منذ أيامه الأولى أعداء أشداء ، وفتناً لا تكاد تخمد ، وكان يقابلها بجيوش على أتم الاستعداد •• ومثل هذا يتطلب واردات منتظمة وغزيرة حتى يتمكن من ســـد جميع النفقات ••

إذاً نحن نستنتج من كل ذلك أن الواردات كانت كبيرة جداً،وأنها بالوقت نفسه كانت منتظمة[٢] • ولم يشر أي مؤرخ إلى أن الناس سواء في أيام ولايته

---

(١) المسعودي ٣/٢٥٩ •

(٢) ذكر بعض المؤرخين بأنه كان في بيت مال الوليد بن يزيد يوم قتل سنة ١٢٦ هـ سبعةوسبعون مليون دينار قام خلفه يزيد بتوزيعها عن آخرها ••• (الجباية في الشام للاستاذ محمد كرد علي) أقول: ان هذا يعني أن مروان حين جاء الى سدة الخلافة لم يجد في خزانة الدولة شيئا • فلو لم تكن الواردات منتظمةومستمرة ، ولو لم يكن البنيان الاقتصادي سليما لما أمكنه من خوض غمار الحروب العديدة وتأمين نفقات الجيوش الجرارة •

أم خلافته كانوا يتبرمون من الجباية أو يشكون ظلماً يحيق بهم[١] .

ومن تلك الحروب المتواصلة نستنتج أيضاً حســن إدارة مروان ، وضبطه لأمور ولايته ، وبعدها أمور خلافته إذ لا يقدر رئيس دولة ، أو حاكم منطقة ، أن يتفرغ للحرب باستمرار إلا إذا كان يمسك كل الإدارات بحزم ونظام ..

وهكذا كان مروان .. أحسن الجباية والإدارة .. فساعده هذا على خوض الحروب باستمرار والانتقال من نصر إلى نصر ..

* * *

---

(١) ما أورده بعض الباحثين من أن ثورة مصر التي حصلت في السنة الاولى لحكم مروان انما سببها الضرائب الباهظة المفروضة عليها (القوى البحرية ص ١٤٣) وما لدينا من المصادر لا يشير الى شيء من ذلك ، فضلا عن أن الباحث لم يذكر المرجع الذي اعتمده ليصار الى مناقشته .

مروان خليفة أموي

نقول إنه أموي بكل ما تحمله هذه الكلمة ..

كان كريماً يعطي بلا حساب ، وهكذا كان بنو أمية ، إلا عمر بن عبد العزيز فقد ذكر المنصور مرة أنه صادف أحد الأشخاص ، وسأله عن وجهته ، فقال : إنه متجه إلى مروان لمدحه .. وعندما صار المنصور خليفة وجد ذلك الرجل فسأله : كم أعطاك مروان ؟. فقال أغناني أن أسأل أحداً بعده[١] ..

قدم عليه عثمان بن عروة بن الزبير فأعطاه مئة ألف[٢] ..

* * *

كان يحب العمران .. فقد ابتنى قصراً في حران أنفق عليه عشرة ملايين درهم واحتوى على خزائنه وأمواله . وقد هدمه عبد الله بن علي عندما احتل حران[٣].

أصلح مينائي صور وعكا .. وكان مكتوباً على كل منهما : ما أمر به بإصلاحه أمير المؤمنين مروان وجرى على يد زياد بن أبي الورد » . وكان زياد هذا وزيراً للنفقات عند مروان[٤] .

أصلح مروان مدينة الموصل وبنى فيها جسراً ، وسوراً ، وأنشأ الطرقات ، كما بنى فيها مسجداً كبيراً[٥]..

وقد قام بضرب الدراهم[٦] ..

(١) القصة بكاملها ... الاغاني ١٥/٥٨ .
(٢) تاريخ الاسلام ٥/٢٧٦ في ترجمة عثمان هذا .
(٣) المسعودي ٣/٢٦١ .
(٤) الوزراء والكتاب ٨٠ .
(٥) معجم البلدان : لياقوت تحت كلمة موصل .
(٦) الاحكام السلطانية لابي يعلى ـ ص ١٦٢ (الحاشية) نقلا عن المقريزي .

وربما لو لم يشتغل مروان بالحروب والفتن لرأينا من إصلاحاته وآثاره العمرانية الشيء الكثير .. ولكنها الحرب التي لا تبقي ولا تذر ..

* * *

كان يحب الشعر ، ويكرم الشعراء ، وله شاعر خاص منقطع له هو اسماعيل الأسدي[١] .. وكان له عريف على الشعراء يختبر أشعارهم ، وينتقي أحسنها[٢] .

مدحه الشاعر طريح بن اسماعيل الثقفي . فأعطاه مئة ألف درهم[٣] ..

ومدحه ذو الرمة بقصيدة منها :

فقلت لهـا سيري أما سيّـد" تفرّع من مروان أو من محمد

ثم ذكر آباءه ، فأعطاه عن كل اسم ألف دينار ، فقال ذو الرمة : لو علت لبلغتُ عبد شمس[٤] ..

وكان يحفظ الشعر وينتقده[٥] .. بل وكان له في نظم الشعر نصيب .. فقد كتب بعض الأبيات إلى جارية كان خلّفها في الرملة عند مسيره إلى مصر .. ومنها قوله الذي أبدع فيه :

وما زال يدعوني إلى الصبـر ما أرى	وإني ليدنيني الذي لك في صـدري
وأعظـم منهـا ذاك والله أننـي	أخاف بـأن لا نلتقي آخـر الدهـر
سأبكيك لا مستيقناً بعض عبرة	ولا طالباً بالصبـر عاقبة الصـبر[٦]

* * *

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر ٣/٢٨ .

(٢) ابن عساكر ١٦/١٩٥ (١).

(٣) العقد الفريد ١/٣٦٩ .

(٤) العقد الفريد ١/٣٧٠ .

(٥) ابن عساكر ١٦/١٩٤ (٢) .

(٦) ابن عساكر ١٦/١٩٥ (١) ـ ١٩٥ (٢) وقد وقعت بعض الاخطاء في الابيـات التـي نقلناها من المخطـوط :

الكلمة كما أثبتناها	الكلمة في المخطوط
واني ليدنيني	فاني ويدنيني
منهـا ذاك	مـن هاذن
بعض عبـرة	نعص غـرة

كان رجلاً يميل إلى اللهو عندما يستريح من عناء الحروب .. هي مجالس نقاهة أو استراحة تنتهي بالاستعداد إلى حرب لا يعرف حدها .. وصفه أحد المؤرخين بأنه « كان يحب اللهو والسماع غير أنه شغل بالحروب .. »[1] .

وكان لا يخرج عن وقاره إذا حضر مجلساً للسمر .. قال إسحاق الموصلي عندما سأله الجاحظ عما إذا كان الخلفاء من بني أمية يظهرون للندماء والمغنين : « أما معاوية ومروان وعبد الملك وهشام ومروان بن محمد فكان بينهم وبين الندماء ستارة وكان لا يظهر أحد من الندماء على ما يفعله .. »[2] .

أما إذا جدّ الجد ، فلا موضع للهو ، ولا للشعر ، ولا للندماء .. فقد أقام أكثر أيامه لا يدنو من النساء إلى أن قتل .. حتى أن جارية من جواريه برزت له ، فقال لها : والله لا دنوت منك ، ولا حللت لك عقدة ، وخراسان ترتجف بنصر بن سيار وأبو مجرم (يقصد أبا مسلم) قد أخذ منه بالمخنّق[3] ..

لامه مرة بعض جلسائه لترك النساء ، والطيب ، واللذات ، فقال له مروان: يمنعني منهن ما منع أمير المؤمنين عبد الملك .. فقال له الرجل : وما ذاك يا أمير المؤمنين ؟ . قال : حمل صاحب إفريقية إليه جارية ذات بهاء وكمال ، تامة المحاسن، شهية للمتأمل .. فلما وقفت بين يديه تأمل حسنها ، وبيده كتاب ورد من الحجاج، وهو بدير الجماجم موافعاً لابن الأشعث ، فرمى بالكتاب من يده وقال لها : أنت والله منية النفس . فقالت الجارية : وما يمنعك يا أمير المؤمنين إذا كنتُ بهذا الوصف ؟ . قال : يمنعني والله بيت قاله الأخطل :

قوم إذا حاربوا شدّوا مآزرهم ... دون النساء ولو باتت بأطهار

أألتذ بالعيش وابن الأشعث مصاف" لأبي محمد ، وقد هلكت فيه زعماء العرب . لاها الله إذاً » . ثم أمر بصيانتها . فلما قُتل ابن الأشعث كانت أول جارية خلا بها » [4] ..

---

(١) تاريخ الاسلام ٥/٢٩٩ .

(٢) التاج ٣١-٣٢ .

(٣) المسعودي ٣/٢٥٦ التاج ١٧٥-١٧٦

(٤) المسعودي ٣/٢٥٦-٢٥٧ .

وحين توجه مروان إلى معركة الزاب لم يكن في جيشه كله إلا جارية واحدة كانت لابنه عبد الله[1] .

وصفه أحد المؤرخين بقوله « إنه كثير المروءة والعجب يعجبه اللهو والطرب، ولكنه كان يشتغل عن ذلك بالحرب »[2] .

لقد تجلت أموية مروان بعصبيته لأسرته .. فهو يرى أن الدم الأموي يجب أن يصان . ومهما صدر من بني أمية من مواقف معارضة له ، فعليه أن يقابلها هو بصدر رحب ، وخلق سمح لا لشيء سوى أنهم من ذوي قرباه ..
هذا هو سليمان بن هشام ، ومعه إبراهيم بن الوليد ، وهما رأس خصومه، ينالان منه كل تكريم وتعظيم ، بعد أن أصبح سيد الدولة وخليفة المسلمين ، ونسي كل عمل لهما سابق .. إساءة يقابلها بالتكريم ..

* * *

كان يحرص كذلك على بقاء الحكم في البيت الأموي لا في خلافته فحسب بل قبلها أيضاً ..

بلغه وهو بأرمينية أن يزيد بن الوليد يؤلب الناس ، ويدعو إلى خلع الوليد، فكتب مروان إلى سعيد بن عبد الملك يأمره أن ينهى الناس ويكفهم .. وقد جاء في هذا الكتاب : «إن الله جعل لكل بيت أركاناً يعتمدون عليها ويتقون بها المخاوف وأنت بحمد الله ركن من أركان أهل بيتك .وقد بلغني أن قوماً من سفهاء أهل بيتك قد استنّوا أمراً إن تمّت لهم رويتهم فيه على ما أجمعوا عليه من نقض بيعتهم استفتحوا باباً لن يغلقه الله عليهم حتى يسفك دماء كثيرة منهم . وأنا مشتغل بأعظم ثغور المسلمين فرجاً ، ولو جمعتني وإياهم لرممتُ فساد أمرهم بيدي ولساني ولخفتُ الله في تـرك ذلك لعلمي ما في عواقب الفُرقة من فساد الدين

(١) الطبري ٩٠/٦ الكامل ٣٢٨/٤ .
(٢) ابن كثير ٤٧/١٠ .

والدنيا . وإنه لن ينتقل سلطان قوم قط إلا في تشتيت كلمتهم . وإن كلمتهم إذا تشوشت طمع فيهم عدوهم . وأنت أقرب إليهم مني ، فاحتلْ لعلم ذلك بإظهار المتابعة لهم ، فإذا صرتَ إلى علم ذلك،فتهددهم بإظهار أسرارهم وخذهم بلسانك. وخوِّفهم العواقب لعل الله أن يرد إليهم ما قد عزب عنهم من دينهم وعقولهم . فإن فيما سعوا فيه تغيير النعم وذهاب الدولة . فعاجل الأمر وحبل الإلفة مشدود. والناس سكون ، والثغور محفوظة ، فإن للجماعة دولة من الفرقة والسعة دافعاً من الفقر،وللعدو منتقصاً،ودول الليالي مختلفة على أهل الدنيا،والتقلب مع الزيادة والنقصان . وقد امتدت بنا أهل البيت متتابعات من النعم قد يُعنى بها جميع الأمم ، وأعداء النعم ، وأهل الحسد لأهلها . وبحسد إبليس خرج آدم من الجنة. وقد أمل القوم في الفتنة أملاً لعل أنفسهم تهلك دون ما أملوا . ولكل أهل بيت مشائيهم يغيِّر الله بهم . فأعاذك الله من ذلك . واجعلني من أمرهم على علم حفظ الله لك دينك ، وأخرجك مما أدخلك فيه ، وغلب لك نفسك على رشدك ..»[1]. فأعظم سعيد ذلك وبعث بكتابه إلى العباس ، فدعا العباس يزيد فعزله وتهدده. فحذره يزيد ، وقال : يا أخي أخاف أن يكون بعض من حسدنا هذه النعمة من عدونا أراد أن يغري بيننا . وحلف له أنه لم يفعل . فصدّقه[2] » . هذا الكتاب يبين لنا مدى أموية مروان ..

فهو من بعيد يراقب أوضاع الدولة في العاصمة . ومراقبته هذه كانت أشد وأدق من مراقبة من يعيش في العاصمة نفسها من الأسرة المالكة ..

وهذا الكتاب يظهر أيضاً صدق فراسة مروان وبعد نظره .فهو يتطلع إلى ما تؤول إليه الفرقة والتنافس حول الحكم والسلطان . وإن محاولة يزيد في تأليب الناس على الخليفة ستغرق البلاد بالدماء وتعمها بالقتل . وقد صدقت فراسة مروان إذ أن يزيد كان في الواقع يتآمر على الوليد ، خلاف ما زعمه للعباس،

---

(١) الطبري ٥/٥٤٤ـ٥٤٥ .
(٢) الطبري ٥/٥٤٥ .

وأن حركة يزيد أيضاً قد أدت إلى وقوع الفتن وكانت عاملاً من العوامل في تهديم صرح الدولة الأموية ..

* * *

ومن مظاهر حرصه على بقاء الحكم في أسرته أن لجأ إلى البيعة لولديه عبيد الله وعبد الله . وزوجهما ابنتي عبد الملك : أم هشام وعائشة . وجمع لذلك أهل بيته جميعاً في حفل الزواج[1] ورأى في ذلك أنه يستطيع أن يحالف العائلة جميعها[2] ..

وفي بيعته لولديه لم يأت بدعاً من الأمر . فعبد الملك عهد لولديه الوليد وسليمان بولاية عهده[3] ، وسليمان بن عبد الملك عهد لعمر بن عبد العزيز وليزيد ابن عبدالملك[4] ويزيد هذا عقد البيعة لأخيه هشام بن عبد الملك ولابنه الوليد ابن يزيد[5] . والوليد بن يزيد عقد البيعة بعده لولديه الحكم وعثمان[6] ..

* * *

وقد بلغ من عصبيته لأسرته الأموية أنه كان ينتقم من كل من نال هذا البيت بسوء ، ولو بمجرد كلمة ..

حدث أن قام يزيد بن الوليد بعد قتل الوليد ، وألقى خطبة تعتبر بمثابة بيان له[7] . وإثر الخطبة نهض قيس بن هانىء ليبايع يزيد فقال : يا أمير المؤمنين: اتّق الله ودُم على ما أنت عليه فما قام مقامك أحد من أهل بيتك . وإن قالوا عمر بن عبد العزيز ، فأنت أخذتها بحبل صالح ، وإن عمر أخذها بحبل

(١) الطبري ٦٠٩/٥ الكامل ٢٨٧/٤ .
(٢) ولهاوزن ٣٠٣ .
(٣) ابن خلدون ١٤٨/٣ .
(٤) ابن خلدون ١٦١/٣
(٥) الكامل ١٧٨/٤
(٦) الطبري ٥٢٨/٥
(٧) نصها الكامل ــ يرجع اليه من شاء ــ في الطبري ٥٧٠/٥ .

سوء .. » فبلغ ذلك مروان فقال : «ما له قاتله الله ذمّنا جميعاً ، وذم عمر ..» فلما ولي مروان الخلافة بعث رجلاً وقال له : إذا دخلت مسجد دمشق فانظر قيس ابن هانىء ، فإنه طالما صلى فيه ، فاقتله .. » فانطلق الرجل ودخل مسجد دمشق فرأى قيساً يصلي ، فقتله[1] ..

وفي هذا المجال نجد له تصرفاً فريداً متناقضاً مع ما عرفنا عنه من عصبية لأسرته .. هذا التصرف هو أنه بعد أن دخل دمشق أمر بنبش قبر يزيد ، فأخرج وصلب[2] .. وإذا صح ذلك فربما كان مبرر اقترافه محاولة استمالة الناس الذين كانوا حانقين على يزيد لتقربه الشديد من المعتزلة ..

وقد ذهب بعض المؤرخين إلى أن مروان لم يأمر بنبش قبر يزيد وبإخراج جثته وصلبه[3] .. ونحن نطمئن إلى هذا القول ونرجحه لأنه ينسجم مع نفسية مروان وتعصبه لأسرته ..

* * *

ومن مظاهر أموية مروان اعتماده في حكمه على عصبية قبلية .. فقد عرفنا في سيرة خلفاء بني أمية ، لا أستثني غير عمر ، كيف أن كلاً منهم كان يعتمد على عصبيةقبلية معينة . كان بعضهم مع قيس وبعضهم مع اليمنية ..

معاوية ، مؤسس الدولة ، كان يعتمد في تدعيم عرشه على اليمانية ، وعلى هذا الطريق سار ابنه يزيد[4] ..

ولقد تجلى الصراع بين القيسية واليمنية بأجلى مظاهره عنفاً وشدة عندما جرت المعارك في مرج راهط بين مروان بن الحكم ، الذي تجمّعت اليمانية حوله،

---

(١) الطبري ٥/٥٧١ .
(٢) ابن عساكر ١٦/١٩٤ (١) المقدسي ٦/٥٣ تاريخ الخلفاء ١٦٩ .
(٣) ولهاوزن ٣٠١ ، العميد العش ٢٩٦ .
(٤) حتي ٣/٣٥١ .

وعلى رأسها بنو كلب ، وبين الضحاك بن قيس الذي انضوت تحت لوائه قيس.. وكانت الغلبة لليمانية[1] ..

بقيت السيادة لليمنية حتى جاء هشام بن عبد الملك ، فناصر القيسية على اليمنية[2] ، وجاء الوليد بن يزيد فنهج نفس السياسة ، وقرب القيسية[3] ، مما حدا بالقبائل اليمنية أن تجتمع ، وتتكتل ، وتبايع يزيد بن الوليد ، وتقضي على الوليد ، وتقتله[4] ، حتى إذا تولى يزيد الخلافة منح اليمانية الهبات والأموال[5].

ليس غريباً إذاً أن يسلك مروان نفس المسلك الذي سار عليه الخلفاء السابقون .. فالخليفة الذي سبقه اعتمد على اليمانية ، وانتقم من القيسية أشد الانتقام[6] ، فكان بديهياً أن يعتمد مروان على القيسية اعتماداً كلياً لسببين : أولهما أنه قام يطالب بدم الوليد ، وأخوال الوليد من قيس[7] .. وثانيهما : أن قيساً كانت تتمركز بالجزيرة[3] ، ومروان سيد الجزيرة . لهذا فإنه لما أتاه نعي يزيد دعا قيساً ، فاستجابت له ، فأعطاها أعطياتها ، ونظمها[9] ، وسار على رأسها يريد دمشق ..

ولقد صوّر أستاذنا العميد العش مكانة العصبية في أسس الحكم الأموي أصدق تصوير حين قال : « نزعة البقاء في الدولة الأموية تستدعي أن تكون لها عصبية تقوم عليها ، وتستند إليها ، وتمكن حكمها بها »[10] ..

* * *

---

(١) حتي ٣/٣٥١ .
(٢) التاريخ الاسلامي العام ٣٧٠ .
(٣) الطبري ٥/٥٣٨ .
(٤) الطبري ٥/٥٣٩ و ٥٤٣ ابن خلدون ٣/٢٢٧ العقد الفريد ٤/٤٦٢ الاخبار الطوال ٣٣١-٣٣٢ .
(٥) الاخبار الطوال ٣٣٢ .
(٦) الاخبار الطوال ٣٣٣ .
(٧) الطبري ٥/٦١٥ .
(٨) ابن خلدون ٣/٦٥ .
(٩) ابن عساكر ١٦/١٩٣ (٢).
(١٠) الدولة الاموية ٣٢٨ .

الفصل الرابع

أَسْبَابُ سُقُوطِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلأُمَوِيَّة

مقـــدمة

كانت الدولة الأموية حتى نهاية عصر هشام بن عبد الملك ثابتة الأركان ، راسخة البنيان ، فما الذي أدى إلى سقوطها واندثارها بعده خلال سنوات ؟.. هل كان سقوطها كالموت المفاجىء عند العـوام الذين يعتقدون أنه لا سبب له ؟ أم كان يعود إلى أسباب خفية عملت عملها في جسد الدولة ، حتى إذا جاءتها صدمة انهارت وخرّت كأن لم تَغْنَ بالأمس ؟..

مما لا ريب فيه أن هناك أسباباً آلت بصرح الدولة إلى السقوط ، منهـا أسباب مباشرة كانت كالشعرة التي قصمت ظهر الجمل ، كما يقول المثل العربي ، ومنها أسباب غير مباشرة لم تظهر إلا في وقت معين ..

وسنبحث كلاً من هذه الأسباب على حدة ..

الأسباب المباشرة

وإذا قلنا السبب المباشر لم نتعد الصواب • لأن معركة واحدة دامت بضعة أيام أدت إلى زوال الدولة الأموية ••

إنها معركة الزاب ••

ونحن قد تعمدنا أن نهمل هذه المعركة في فصل سابق لنعرضها هنا في هذا الفصل بتفصيل يتناسب مع نتائجها ••

معركة الزاب : (١)

تحرك جيش بني العباس من خراسان باتجاه العراق بقيادة أبي عون عبدالملك ابن يزيد الأزدي ، واتجه من نهاوند إلى شهروز • وفي شهرزور جرت معركة في ذي الحجة بين أبي عون ، وعبد الله بن محمد انتهت بهزيمة عبد الله ، وعودة فلول جيشه إلى حران[٢] • وقد قتل عثمان بن سفيان أحد قواد مروان في هذه المعركة ••

أدرك مروان خطورة الزحف القادم من خراسان ، والذي قارب حدود الجزيرة ، فأعد للأمر عدته ،وخرج من حران باتجاه الموصل ، والتقى بأبي عون عند نهر الزاب ، وقام مروان بعد أن عسكر تجاه جيش أبي عون بحفر الخنادق حول جيشه[٣] •

(١) في وصف المعركة المجرد اعتمدنا رواية الطبري ٨٨/٦-٩١ واذا اخذنا راي غيره اضافة لرايه اشرنا اليه •

(٢) الطبري ٦٩/٦ شاكر مصطفى ٩٣/١ •

(٣) الكامل ٣٢٧/٤ •

وفي هذه الفترة أصبح أبو العباس السفاح أول خليفة عباسي ، فانتدب لقيادة المعركة ضد مروان أخاه عبد الله بن علي ..

وفي الثاني من جمادى الآخرة سنة ١٣٢ هـ (٧٥٠ ميلادية) جرى أول صدام مسلح بين الجيشين [١] . إذ عبرت فرقة من الجيش العباسي بقيادة عيينة بن موسى مخاضة ، ودخلت معسكر مروان . وفي المساء عادت إلى قواعدها . وبعد ذلك جرت معركة أخرى بين فرقة من جيش بني العباس بقيادة المخارق بن غفار ، وفرقة من جيش مروان بقيادة الوليد بن معاوية ، وانتهت بهزيمة المخارق هزيمة منكرة ، وعندما سمع عبد الله بن علي بهزيمة المخارق خشي أن يصل نبؤها إلى جنده ، فينال من قوة معنوياتهم ، فاستعد إلى لقاء مروان وجهاً لوجه .. اشتد القتال بين الفريقين ، وانتهى بهزيمة مروان هزيمة شنيعة .. إذ راح جيشه بعد قطع حبال الجسر بين قتيل وغريق وأسير .. وهرب الخليفة مروان إلى حران .. وكانت الهزيمة صبيحة يوم السبت الحادي عشر من جمادى الآخرة سنة ١٣٢ هـ [٢] .

* * *

ماهي أسباب الهزيمة ؟

لا يماري أحد في أن مروان لا نظير له في جيش عبد الله بن علي ، كقائد مجرب عركته الحرب ، وعركها ، فكان قائدها البطل المظفر ..

إذاً فمن أين أتت الهزيمة ؟.

كان عدد جيش مروان مئة وعشرين ألفاً من الجنود [٣] وفي رواية أنهم كانوا مئة وخمسين ألفاً [٤] وفي أخرى أنهم كانوا مئة ألف [٥] ..

---

(١) الكامل ٤/٣٢٧ .
(٢) ابن عساكر ١٦/١٩٦ (٢) .
(٣) الطبري ٦/٩٣ الكامل ٤/٣٢٧ أبو الفدا ١/٢١١ .
(٤) ابن عساكر ١٦/١٩٦ (٢) .
(٥) ابن عساكر ١٦/١٩٦ (٢) .

أما تيوفان فيجعل عدد جنود مروان ثلاثمائة ألف رجل[١]

وأما جيش عبد الله بن علي فكان عشرين ألفاً[٢] . وقيل أقل من ذلك[٣] .. ونحن لا نأخذ بالروايات المذكورة حول جيش عبد الله نظراً لتعددها ، والخلاف بينها في التقدير[٤]. والذي نرجحه ونطمئن إليه أن جنود عبد الله كانوا أكثر من ذلك بكثير ..

المهم في الأمر أن مروان قد هزم .. وسبب هزيمته يعود إلى جيشه ، وإليه نفسه ..

نظرة أولى إلى جيش مروان ، وإلى جند عبد الله بن علي توضح مدى دور جنود الخليفة الأموي بالهزيمة ..

جند عبد الله بن علي يقاتلون بعقيدة واحدة . يجمعهم شعار : يالثارات إبراهيم[٥] .. وهو شعار يوقد فيهم جذوة الحماس .. وهو رمز جمع الحاقدين على بني أمية وصهرهم في بوتقة واحدة ..

أما جند مروان فكانوا من أهل الجزيرة ، ومن أهل الشام ، ومعه بنو أمية[٦] . ولئن كان من المعقول أن يكون ولاء أهل الجزيرة لمروان ، فليس من المعقول أن يكون أهل الشام على مثل ذلك الولاء له .. فنحن نعرف من سيرته كيف أن حكمه لم يستتب في الشام إلا بقوة السلاح ، ومعاركه كان معظمها في بلاد الشام، ولا بد أن يكون في تلك المعارك قد قتل عدداً كبيراً من الناس بقي لهم في قلوب أهليهم ثأر مدفون ينتظر الفرصة .. ولئن كان أخرج هؤلاء طمعهم بالمال ، فإن المال وحده لا يمكن أن يجمع إلا قطاع الطريق فترة وجيزة من الزمن سرعان ما

(١) مذكور في ولهاوزن ٤٣٣ .
(٢) الطبري ٩٣/٦ الكامل ٣٢٧/٤ ابو الفدا ٢١١/١ .
(٣) أبو الفدا ٢١١/١ الوزراء والكتاب ٨٠-٨١ .
(٤) انظر مثلا الطبري ٩٣/٦ .
(٥) الطبري ٨٩/٦ .
(٦) ابن عساكر ١٩٦/١٦ (٢).

بفرقهم عندما يستشعرون الخطر على حياتهم . أما في ساحة الحرب فلا بد من مبدأ سام يلف قلوب الجنود بحزام واحد .. وهذا ما كان يفتقده جيش مروان ... كان على مروان ، وهو القائد المحنك الذي لم ينهزم في معركه خاضها قبل الزاب ، أن يلحظ هذه الناحية في جنده..

لقد كان عبد الملك بن مروان دونه في المقدرة العسكرية بكثير . ومع ذلك لاحظ الروح المعنوية في جنده ، فنراه عندما توجه إلى حرب زفر بن الحارث في قرقيسيا يبعد القيسيين من جنده لأن قبيلة قيس قد اجتمعت حول زفر[1] ..

كان من الواجب على مروان أن يلحظ هذا ، وأن يختار جنده من قيس فقط . وبعبارة ثانية من أهل الجزيرة ، ولو أن العدد سيكون أقل إلا أن النصر سيتحقق بصورة أضمن ..

ولقد نجم عن وجود هذا الخليط في جيشه أن ظهرت حركة تمرد فيه في لحظة حرجة .. فعندما استعد الفريقان للهجوم الكبير أمر مروان قبيلة قضاعة أن تبدأ القتال فأبت ، وأمر بني سليم أن تفعل فأبت[2] . وكانت كل قبيلة تأبى إطاعة أمره ، وتحيله إلى قبيلة أخرى ..

وحينما التحم الجيشان أراد مروان أن يشجّع جنده ، ويحمّسهم ، فأخرج ما معه من أموال ليوزعها بينهم ، فنهبتها طائفة ، فغاظ ذلك بقية الجند ، فأرسل مروان ابنه عبد الله إلى مؤخرة الجيش ليحرس المال ، فظن من رأى عبد الله وجيشه ، وهو يتراجع إلى الخطوط الخلفية ، حيث كان المال ، أن الهزيمة قد لحقت بالجيش ، فقال الناس : الهزيمة .. فانهزموا[3] ..

هنا تظهر الروح المعنوية في جيش مروان .. خرج قسم منهم للمال ، فعندما

---

(١) ابن خلدون ٣/٨١ .
(٢) الطبري ٦/٨٩ الكامل ٤/٣٢٨ .
(٣) الطبري ٦/٩٠ الكامل ٤/٣٢٨ .

لاح المال هجموا عليه معانقين ، وأداروا للعدو ظهرهم ، وهذا القسم من الجند أدى إلى زعزعة الروح المعنوية في باقي الجند ..

وهذا المأخذ يرجع ، فيما نرى ، إلى المأخذ السابق على مروان بأنه لم يحسن القيادة عند تعبئة جنده .

* * *

هناك مأخذ آخر وهام ، في رأينا ، وهو أن مروان بعد أن لحظ اقتحام جند بني العباس في أول معركة جانبية لمعسكره مستفيدين من مخاضة في النهر ، كان عليه أن يغيّر خطته التي اعتمدها . فلا يكفي أن يأمر ابنه عبد الله بحفر خندق أسفل معسكر عبد الله بن علي(١) .. وإنما عليه أن يلجأ إلى نفس الطريقة التي اتبعها في معركة عين الجر ، وهي الالتفاف حول العدو ، وإشغال مؤخرته ومقدمته بالقتال في وقت واحد ، فيدب الذعر فيه ، وتنتهي المعركة لصالحه .. والذي يؤيد نجاح هذه الخطة أن إمكانية مروان العامة في معركة الزاب أفضل مما كانت عليه في عين الجر في كل شيء .. فعدد جنده أكثر ، وسلاحه وماله أكثر ، وقوة خصمه في الزاب دون قوة خصمه في عين الجر بكثير ..

كما أن قائد جيش عدوه في الزاب عبد الله بن علي دون سليمان بن هشام الذي له معارك موفقة في أرمينية وبلاد الروم(٢) .

ولو لجأ مروان إلى هذه الخطة لجنّب ظهور أثر ضعف الروح المعنوية لدى جنده ، لأن إرسال فرقة الجيش خلف صفوف العدو تقلل من كثافة الجند ، وتنهي المعركة بسرعة أكبر ، إذا قامت بعملها بنجاح ..

* * *

---

(١) الطبري ٨٨/٦ الكامل ٣٢٨/٤ .

(٢) لم اعثر في جميع المصادر التي اطلعت عليها على ذكر معركة قادها عبد الله بن علي قبل الزاب ... ومن المؤكد ان القيادة درس وتجربة .. كما اني لم اجد في ترجمته ما يفيد أنه اشتهر بالقيادة .. وهذا ما جعلني افضل عليه سليمان في مجال القيادة الحربية .

كل ما في الأمر ، إذاً ، أن سبب الهزيمة في الزاب يرجع إلى انعدام الروح المعنوية بين جنوده ، كما يرجع إلى أخطائه نفسه بالقيادة ، وعدم المرونة في مجابهة كل موقف بخطة تلائمه ..

وأقول رغم كل ما ذكرته من أخطاء مروان في معركة الزاب أن مروان قائد عبقري لم يهزم إلا في هذه المعركة ، وتلك مزية لم تجتمع لدى أي قائد آخر .. فنابليون هزم في عدة معارك ، فقد سقط اعتباره أمام أسوار عكا كما فقد جيشه في سهول روسيا وانتهى بهزيمة نكراء في واترلو ، رغم كل ذلك لم يفقد قيمته كقائد عبقري ناجح .. فهل نضنّ بهذا الوصف على مروان الذي لم ينهزم إلا في معركة واحدة في حياته الحافلة بالمعارك ؟..

* * *

الأسباب غير المباشرة

عرض آراء المؤرخين :

لقد تعددت آراء المؤرخين في تحديد هذه الأسباب لأن كل مؤرخ ينظر للأمور نظرة من زاوية معينة •• ولا شك أن الذي ينظر للمسألة من زاوية معينة لا يمكن أن يقدم وصفاً حقيقياً لتلك المسألة ••

والآن لنسر مع هؤلاء في عرض آرائهم ••

١ ــ يرى الأستاذ عباس محمود العقاد أن النزاع بين المضرية واليمانيــة ، والذي ابتدأ منذ أيام مؤسس الدولة الأموية معاوية ، قد أدى إلى ضياع الدولة الأمويــة[١] ••

وهذا الرأي ليس بدعاً من الآراء •• فقد سبق إليه المسعودي عندما ذكر أن التفاخر بين نزار (قيس) واليمن ، وتحرك العصبية في البدو والحضر ، أدى إلى انتقال الدولة من بني أمية إلى بني هاشم[٢] ••

٢ ــ وللأستاذ العقاد رأي آخر بتعليل سقوط الدولة الأموية •• نراه يقول: وكان مصرع الحسين هو الداء القاتل الذي سكن جثمانهاــ أي الدولة الأموية ــ حتى قضى عليها[٣] ••

٣ ــ رأي آخر يقول بأن « العامل الهــام الذي أدى إلى سقوط الدولة الأموية ، وتضعضعها بشكل جلي ، ما كان من تعصــب الأمويين للعرب • مــا

(١) معاوية ٧٠ •
(٢) المسعودي ٣/٢٤٥ •
(٣) الحسين ١٠٧ •

أدى إلى خروج الموالي على الدولة الأمـوية . وهم غير العرب الذين دخلوا في الإسلام عقب الفتح العربي في فارس ومصر والمغرب . وما لبث هؤلاء الموالي أن أصبحوا أعداء العرب لتفضيـل أنفسهم عليهم وتمتعهم بحقوق لم يتمتع بهـا الموالي . لذلك كان الموالي ينتهزون كل فرصة ليكيدوا للدولة الأموية . وظهروا مع كل خارج على الأمويين »[١] ..

٤ ـ أما المستشرق جولدتسهير ، فقد عرض رأياً انفرد به مفاده أن عمـر ابن عبد العزيز « وهو أحد الأمراء الذين تربوا في بيئة صالحة . والذي ساعده جهله بالأمور السياسية على سقوط بيته »[٢] .

٥ ـ ويدعي بعض المؤرخين أن المعتزلة قد عملت على إسقاط الدولة الأموية. وأنهم لم يقدموا على ذلك لإحلال ذرية علي محلهم ، ولكن لإحلال العباسيين . وقد اعتنق بعض خلفاء العصر العباسي الأول مذهبهم،كالمأمون والمعتصم والواثق، وحاولوا جعله مذهباً رسمياً للدولة[٣] .

٦ ـ ويرى بعض المؤرخين أن مصرع الوليد بن يزيد كان إيذاناً بانقضاء الدولة الأموية . ذلك لأن دعوة الخوارج الثورية التي نجحت في الأمصار نجاحاً كبيراً ما لبثت أن انتشرت في سورية أيضاً بعد أن أضاع الأمويون أنفسهم هيبة الخلافة فيها .. وكان ولاؤها قبل ذلك لهم بلا خلاف[٤] ..

٧ ـ أما أستاذنا العميـد العش فإنه يلخص أسس نظـام الحكم في الدولة ويرى أن الضعف الذي تسرب إلى تلك الأسس هو الذي أدى إلى سقوط الدولة. قال : « وهذا المخطط يتلخص كما رأينا في حكم فردي ، وراثي ، لا تزعزعـه الأحداث ، وفي عصبية شامية واقية حامية من المفاجئات حتى إذا شل هذا المخطط ، أو دخله الوهن في أجزائه يوماً قضي على الدولة .

---

(١) التاريخ الاسلامي العام ٣٧٢ .
(٢) جولدتسهير ٤٨ .
(٣) تاريخ العراق ٢١١ .
(٤) بروكلمان ١/١٩٦ .

والواقع أن دولة بني أمية سقطت لأنها أخلت بأسباب بقائها الأولى ، فحين أصبحت الخلافة تنتقل فيها بقوة السيف ، كما فعل يزيد الثالث ، ومروان الثاني، وحين ابتعد الأمويون عن عصبيتهم الأصلية من أهل الشام العرب الأصليين، وخاصة بني كلب ، فجعل مروان الجعدي مركز الخلافة بعيدة في حران في جوار قيس ، نقضوا أسس دولتهم في البقاء والاستمرار . نعم إنهم حاولوا إنشاء أسس جديدة، وعاصمة جديدة ، لكن الزمن لم يمهلهم لهذا الإنشاء ؛ وإذا بالعدو يفاجئهم على حين غرة ، فتسقط دولتهم سقوطها المريع مع أنها كانت في عز مجدها الحربي يقودها خليفة قادر في ميدان الحرب والسياسة معاً »[1] .

ويقول أيضاً : « فالمسؤول الأول في حوادث سقوط الدولة الأموية هو ذلك الالتهاب النفسي في الجيل الذي عاصر هذه الحوادث ، ولعب دوره فيها ، لكن هذه المسؤولية محدودة ، فسقوط الدولة الأموية ما كان يتم بهذه الفورة فقط ، لو لم تكن هذه الفورة جواً ملائماً لها .. »[2].

* * *

مناقشة آراء المؤرخين :

ونحن بعد أن عرضنا تلك الآراء سنناقشها لنتبين واقعيتها ، ومدى الدور الذي لعبته الحوادث التي استندت تلك الآراء إليها في سقوط الدولة الأموية ..

وسنسلك في هذه المناقشة نفس التسلسل الذي اعتمدناه عند تبيان الآراء

١ ـ عرضنا فيما سبق[3] كيف أن العصبية القبلية كانت الصفة المميزة للحكم الأموي لا يستثنى إلا حكم عمر بن عبد العزيز الذي انفرد بمزية خاصة. فتارة يكون الخليفة مؤيداً لليمنية بجميع عوامل التأييد ، فالهبات لهم والولاة منهم ، وتارة يميل الخليفة للقيسية .. وخليفة هذا أمره لا يمكن أن تلتف قلوب

---

(١) الدولة الاموية ٣٣٩ـ٣٤٠ .
(٢) المرجع السابق ٣٠٠ .
(٣) انظر ص ١١٥ من هذا الكتاب .

الناس حول عرشه • إن رئيس الدولة والد" بار" يوزع عطفه وحنانه على أولاده ، ولا يحرم منه أحداً دون سبب معقول ••

بيد أننا لا نرى أنهذا السبب هو العامل الوحيد في تقويض صرح الدولة الأموية • فقد كان قائماً منذ نشأة الدولة ، ونحن نعلم أن الدولة كانت حتى نهاية عصر هشام سنة ١٢٥ هـ قوية البنيان متينة الأركان • ولم تعش الدولة بعد هذا التاريخ إلا سبع سنوات أصبحت فيها العصبية القبلية مرقاة يصعد عليها الطامح بالخلافة ••

* * *

٢ ـ أما الرأي الثاني القائل أن مصرع الحسين هو الذي قضى على الدولة الأموية ، فليس السبب الوحيد ، وإن ساهم أخيراً في تشكيل قيادة تستغل هذا الحادث ، وما تلاه من حوادث تعرض لها آل البيت في العهد الأموي متخذة منه ستاراً أشبه بقميص عثمان ، تلوح به كلما قامت عقبة تحول دون إزالة الدولة القائمة ••

والذي يؤكد هذه الحقيقة هو موقف خلفاء بني أمية من آل البيت ، ومقارنته بموقف خلفاء بني العباس الذين ادعوا أنهم قاموا للثأر لآل البيت ••

قال معاوية الثاني : « أيها الناس : إن جدي معاوية نازع الأمر أهله ، ومن هو أحق منه لقرابته من رسول الله ﷺ ، وهو علي بن أبي طالب »[1] ••

وهذا عبد الملك يكتب للحجاج : « لا تعرض لمحمد بن الحنفية ، ولا لأحد من أصحابه • جنّبْني دماء آل أبي طالب ، فليس فيها شفاء من الحرب[2] •• » • وكان هذا الكتاب جواباً لبيعة محمد بن الحنفية لعبد الملك ، والتي جاءت بكتاب هذا نصه :

(١) تاريخ العراق ١٢٥ •

(٢) عبد الملك ٢٢٧ •

« بسم الله الرحمن الرحيم ••

لعبد الله عبد الملك أمير المؤمنين من محمد بن علي •• أما بعد : فإني لمـا رأيت الأمة قد اختلفت اعتزلتهم • فلما أفضى هذا الأمر إليك ، وبايعك الناس ، ورأيت الناس قد اجتمعوا عليك ، كنتُ كرجل منهم أدخل في صالح ما دخلوا فيه • فقد بايعتك ، وبايعت الحجاج لك ، وبعثت إليك ببيعتي • ونحن نحب أن تؤمننـا ، وتعطينا ميثاقاً على الوفاء •• »[1] •

وهذا علي بن عبد الله بن عباس ، والد صالح وداود وجد أبي العباس وأبي جعفر ، يقطعه بنو أمية قرية اسمها الحميمة بالشراة ــ قرية بالقرب من الشوبك من إقليم البلقاء بالأردن ــ فأقام فيها وبها ولد أكثر أولاده ، وكانت وفاته سنة ١١٧ هـ • وقد أنزله بها الوليد بن عبد الملك[2] • •

وهذا هشام بن عبد الملك بعد أن علم بمقتل زيد بن علي[3] وولده يحيى ، حزن عليهما أشد الحزن وقال : « ودِدتُ أني كنتُ افتديتهما »[4] ••

وهذا مروان ، آخر خليفة أموي ، كان يمتنع عن شتم ولعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب[5] ••

هذا هو موقف بعض خلفاء بني أمية من آل البيت • فهل نجد لبني العباس مثل هذه المواقف ؟•

---

(١) عبد الملك ٢٢٦ ــ ٢٢٧ •

(٢) الخضري ــ الدولة العباسية ٩ ، ١٢ •

(٣) في ترجمة زيد بن علي انظر : فوات الوفيات ١/١٦٥ الشهرستاني ٢٤٩ •

(٤) الطبقات الكبير ٥/٢٣٨ •

وقد ذكر ابن قتيبة أن عمر بن هبيرة هو الذي قتل زيد بن علي ، ولما علم هشام بذلك غضب وقال : « مثل زيد بن علي في شرفه ، وفضله ، يقتله ابن هبيرة ؟• » ثم انه عزل ابـن هبيرة عـن الكوفة واغرمه مليون درهم ، ولم يل له شيئا حتى مات (الإمامة والسياسة ١٩٨ــ١٩٩) ••• ونحن لاناخذ بهذه الرواية لان ابن هبيرة كان قد عزل في الايام الاولى لهشام سنة ١٠٥ هـ (الطبري ٥/٣٧٦ ابن خلدون ٣/١٨٣) وذلك قبل مقتل زيد • وقد ذكر الطبري (٥/٥٠٤) أن يوسف بن عمر الثقفي والي العـراق هو الذي أمر بصلب زيد بن علي ، ونفذ ذلك في الكناسة ، وكان ذلك سنة ١٢٢ هـ • ولا يسعـنا أن نترك رواية الطبري لخبر جاء في (الامامة والسياسة) •••

(٥) المسعودي ٣/٢٦٠ــ٢٦١ •

استغل بنو العباس مأساة آل البيت ، فنظموا أمورهم غاية التنظيم ، وزعموا أنهم يطالبون بالثأر لآل البيت .. وعندما تحقق لهم النصر ماذا فعلوا ؟..

في حوار جرى بين صالح بن علي ، وابنة مروان الكبرى بعد مقتل أبيها . ذكر صالح فيه مآسي آل البيت ، فذكر الحسين بن علي ، وزيد بن يحيى ، ويحيى ابن زيد ، وإبراهيم بن محمد[١] . مما يوضح الرغبة الظاهرة بالثأر لآل البيت.

أما حقيقة الدعوة فقد ظهرت جلية زمن المنصور ، عندما انتقم من محمد ذي النفس الزكية . وفي هذا يقول أحد المؤرخين : « لم يكن موقف بني العباس أرحم أو أقل قسوة ، من موقف الأمويين مع آل علي . وليست باخمرى[٢] بأقل من كربلاء ، ولا عمل المنصور بأرحم من عمل عبد الملك ، وهـذا ما يفسر مايرويه الأغاني من جواب محمد ذي النفس الزكية لعمّه الحسن بن الحسين بن علي حين سأله : لمَ تبكي على بني أمية ، وأنت تريد ببني العباس ما تريد ؟. قال : والله ياعم لقد كنا نقمنا على بني أمية ما نقمنا ، فما بنو العباس إلا أقل خوفاً لله منهم .وإن الحجة على بني العباس أوجب منها عليهم . لقد كان للقوم أخلاق ، ومكارم ، ليست لأبي جعفر »[٣] .

ولقد كان محمد على حق في قوله ، لأن نفسية أبي جعفر ظهـرت تجاه آل البيت قبل خلافته . فهو يلوم أخاه أبا العباس ، لأنه يتحمل من عبد الله بن الحسين المثنى مواجهته له بما يكره ، ويعطيه العطاء الجزيل . يقول أبو جعفر لأخيـه : إن هؤلاء شنؤونا ، فآنسهم بالإحسان ، فإن استوحشوا ، فالشر يصلح ما عجز عنه الخير ، ولا تدع محمداً يسرح في أعنّة العقوق .. فقال السفاح : من شدد

---

(١) المسعودي ٣/٢٦٢-٢٦٣ .

(٢) موقع قـرب الكوفة جرت فيه معركة سنة ١٤٥ هـ بـين جيش أبي جعفر المنصور وابراهيم ابن عبد الله بن الحسن من أحفاد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب . وقد انتهت بهزيمة ابراهيم ، وقتله والتمثيل به ، كما قتل في هذه المعركة الكثير من البيت العلوي ، وتم القبض على الكثير منهم ، فحبسهم المنصور في سرداب على شاطىء الفرات قرب الكوفة ، لا يصل اليهم ضوء ، حتى ماتوا .

(٣) شاكر مصطفى ٧٤/١ .

نفشّر . ومن لان ألتّف ، والتغافل من سجايا الكرام[1].

وعندما تولى أبو جعفر الخلافة « كان أول من أوقع الفتنة بين العباسيين والعلويين ، وكانوا قبل شيئاً واحداً . في سنة خمس وأربعين — بعد المئة — كان خروج الأخوين محمد وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب فظفر بهما المنصور ، وقتلهما وجماعة كثيرة من آل البيت .. وآذى المنصور خلقاً من العلماء ممن خرج معهما ، أو أمر بالخروج قتلاً وضرباً ، وغير ذلك . منهم أبو حنيفة وعبد الحميد بن جعفر وابن عجلان ومالك بن أنس »[2] .

ولعل سبب شدة نقمة بني العباس من آل البيت أحفاد علي يعود إلى أنهم كانوا يعرفون خفايا آل البيت لما كانوا يعملون معهم في عهد بني أمية[3] ..

وقد دأب العباسيون على أن يثنوا الأمة الاسلامية عن تقديس علي وآله . وهدم المتوكل قبر الحسين ، لأنه رأى أن الناس يجب أن لا يذكروا أنه في هذه البقعة المقدسة يرقد ابن لعلي كان قد أراق دمه دفاعاً عن حقوق آل البيت . واضطهد العباسيون كثيراً من كبار العلويين حتى من الذين ينتمون إلى سلسلة الأئمة ، ونكلوا بهم في قسوة زائدة ، وقد قضى كثير منهم حياته في السجن ، أو مات مقتولاً أو مسموماً .. »[4].

* * *

بعد ذلك هل يصح أن يقال أن دم الحسين هو الذي هدم عرش بني أمية ؟. أم أن الصواب أن يقال أن دم الحسين كان ستاراً يخفي أطماعاً سياسية لفئة منظمة مستغلة ؟..

* * *

---

(١) شذرات ١/١٩٥ .
(٢) تاريخ الخلفاء ١٧٣ ترجمة المنصور .
(٣) فجر الاسلام ٢٧٥ .
(٤) جولدتسهير ١٧٧ .

٣ ـ أما أن تعصب بني أمية للعرب بصورة أدى إلى تنمية الحقد في نفوس الموالي ، وهم المسلمون غير العرب . وأن هذا الحقد أدى إلى تقويض الحكم الأموي ؛ فهذاالرأي غير صحيح ••

لقد تطاولت الألسنة على العرب عموماً في هذا المجال •• فهذا مؤرخ يقول « فالموالي حقيقة كانوا يعتبرون في نظر العرب جنساً منحطاً لا يمتاز عن العبيد إلا قليلاً •• »[1]• وفي مكان آخر يؤكد هذا المؤرخ أن « عمليات الزواج بين العرب والموالي تعتبر غير متكافئة ، ولم تحرم دائرة البحث من تناول موضوع هل يستطيع الصالحون من غير العرب أن يتزوجوا في الجنة نساء من العرب •• »[2]•

ويأتي مؤرخ عربي معاصر فيقول معتمداً على آراء المستشرقين أن العرب اعتبروا أن « الموالي دخلاء في الدين والقومية العربية (جوزي – من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام) ، كما اعتبروا تزاوج الموالي والعرب جريمة لا تغتفر • وجعلوا مساجد خاصة بالموالي ، وحفل الشعر العربي بقصائد في هجاء الموالي (كريمر : الحضارة الإسلامية) وغير ذلك من مظاهر الاضطهاد الاجتماعي •• »[3] ••

ويحاول هذا المؤلف العربي تعليل الحوادث التاريخية ويصمها بوصم يمكن أن يصلح لعصرنا هذا . أو قُلْ هو من مصطلحات هذا العصر •• يقول : « كانت حركة ابن الأشعث حركة انفصالية قام بها موالي العراق ضد الشام ، فهي ليست موجهة إلى الحجاج فحسب ، بل إلى الدولة الأموية بأسرها •• » (دائرة المعارف الإسلامية)[4] ••

وتحاول باحثة عربية أن تزيد في التعليل لثورة ابن الأشعث فتقول : « كانت فتنة ابن الأشعث تمثل روح السخط من جانب الشيعة والخوارج والموالي ضد

---

(١) خدابخش ٤١ •
(٢) خدابخش ٤٢ •
(٣) تاريخ العراق ١٥٧ـ١٥٨ •
(٤) تاريخ العراق ١٧٥ـ١٧٦ •

الأمويين •• »[1] •

ولقد فلسف أحد المؤرخين نظرة العرب إلى الموالي باحتقار أن العرب نظراً لسرعة الفتوح قد تملكهم « شعور بالسيادة أضحوا معه يعتقدون أن العربي خُلق ليسود ، وخُلق غيره لكسح الطرق ، وخرز الخفاف وحوك الثياب •• »[2] •

فهل صح كل ما قاله هؤلاء ؟•

لقد « كان للموالي مرتّبات في عهد بني أمية • ففرض معاوية لهم خمسةعشر درهماً زادها عبد الملك إلى عشرين ، وأبلغها سليمان إلى خمسة وعشرين ، ثم أصبحت ثلاثين في عهد هشام (ابن عبد ربه ـ العقد الفريد) مما يدل على استمرار تحسن حالة الموالي[3]••

وليس بصحيح ما ذكره المؤرخ الهندي خدابخش ، وما قاله السيوطي (تاريخ الخلفاء ص ٢٢) أن المنصور أول من استخدم الموالي في الوظائف الهامة، وقدمهم على العرب ، يدل بما فيه الكفاية على مركزهم الاجتماعي والسياسي حتى زمن ذلك الخليفة العباسي •• »[4] •

ونحن نستغرب قول خدابخش والسيوطي ، إذ ماذا نصنع بعشرات من الكتاب كانوا في بلاط بني أمية ؟••

نذكر على سبيل المثال كاتب الحجاج زادان فروخ[5] •• ومالنا نذهب بعيداً ، ولا نذكر بلاط الخليفة الذي نؤرخ له ، مروان بن محمد ، فقد كان كاتبه عبد الحميد بن يحيى[6] وهو من الموالي •

وحسبنا أن ندل على مدى تعلق هذا المولى بالخليفة الأموي ، ووفائه له ،

---

(١) سيدة اسماعيل كاشف ٧١ •
(٢) تاريخ العراق ١٦١ •
(٣) خدابخش ٤٦ •
(٤) خدابخش ٤٦ •
(٥) الماوردي ٢٠٢ •
(٦) في ترجمته مفصلة انظر ـ اذا رغبت ـ ابن كثير ١٠/٥٥ •

أنه بقي مع مروان حتى آخر لحظة من حياته ، وقد قتله السفاح ، ومثّل به[1] ..

وألح عليه مروان حين انهزامه أن يعمل عند بني العباس ، فأبى[2]..

يقول أحد المؤرخين « كان للموالي نصيب أكبر من نصيب العرب من الوظائف العامة وعلى الأخص فيما يتعلق بالإدارة المالية(ابن خلدون ــ مقدمة) فكان عامل خراج وكاتب زياد بن أبيه من الفرس ، بل إن مصعب بن الزبير،الذي عُرف بكراهيته للموالي ، ولّى أحد رجال الفرس أمر خراجه (الجهشياري) ، وظل شريح قاضياً على الكوفة خمساً وسبعين سنة من عهد عمر بن الخطاب إلى عهد الحجاج ، وكان من أصل فارسي (الدميري ــ حياة الحيوان ــ) . وكان عبيد الله بن زياد يقرب الموالي ، ويجفو العرب ، كما أنشأ جيشاً من الموالي سمّاه المحاربة ، ليحارب بهم العرب (ابن قتيبة) ، وكذلك أسند المختار بن أبي عبيد الثقفي إلى الموالي الوظائف ، وأعد جيشاً منهم (الدينوري) . وصفوة القول أن الثروة كانت مركزة في أيدي الفرس ، فضلاً عن الإدارة التي حرصوا على بقائها في أيديهم ، (سايكس) .. »[3] .

تلكم هي مكانة الموالي الرسمية . فهل من المعقول أن يرفع الخليفة ، أو الأمير ، رجلاً إلى مركز حساس جداً إذا كان يتطلع إلى الطبقة التي ينتمي اليها الرجل بنظرة احتقار ؟..

ولولا أننا نؤرخ سيرة شخص معين لا تاريخ دولة لتتبعنا أسماء الموظفين الكبار وأعمالهم والذين هم من الموالي إبان الحكم الأموي[4].

* * *

(١) ابن كثير ١٠/٥٥ .

(٢) للتوسع : انظر الحوار مفصلا بين مروان وعبد الحميد:المسعودي ٣/٢٦٣ الوزراء والكتاب٧٩ .

(٣) تاريخ العراق ٢٦٠ـ٢٦١ .

(٤) لقد فعل هذا بعض المؤلفين دفاعا عن موقف بني أمية من الموالي وما اتهمهم به المستشرقون زورا وبهتانا ... انظر : الخراج ٢٥١ـ٢٥٧ الدوري ٨٧ . ولابن خلدون في مقدمته تعليل رائع في سبب المكانة العلمية التي احتلها غير العرب في الدولة العربية ، فلينظر (ص ٥٤٣ وما بعدها) .

أما مكانة الموالي الاجتماعية في العهد الأموي فيصورها أدق تصوير سؤال وجواب .. أما السؤال فقد طرحه عبد الملك بن مروان عن أسماء الأعلام في عصره وأما الجواب فكان من الزهري الذي عدد العلماء ، وجميعهم من الموالي،ولاسمهم في قلوب المسلمين حتى عصرنا هذا تقدير وإكبار.. من هؤلاء : عطاء بن أبي رباح ، وطاووس بن كيسان ، ويزيد بن أبي حبيب ، ومكحول الدمشقي ، وميمون بن مهران ، والضحاك بن مزاحم ، والحسن بن أبي الحسن ، وإبراهيم النخعي .. وكانوا سادة منتشرين في أرجاء الدولة : بمكة واليمن ومصر والشام وخراسان والعراق[1] ..

فهل يصح أن يقال أن مكانة الموالي كانت سيئة جداً ؟..

* * *

أما قصة ترفع العربي عن التزوج من الموالي ، فحسبنا أن نذكر أن « أولاد عبد الملك : الوليد وسليمان ويزيد وهشام ، وجميعهم صاروا خلفاء ، أو ملوكاً، ثم مسلمة بن عبد الملك ، وعبد الله ، وسعيد ، وهم لأمهات أولاد .. »[2] أي أن رأس العرب ، خليفة المسلمين الأموي ، كانت أمه أمة من الموالي .. والخليفة مروان أليست أمه أمة ؟..

فأي رفع أسمى من هذا للموالي ؟ هل نجد نظيراً له في أبناء دولة واحدة ، أمريكا ، فرّق بين أبنائها اللون ؟..

* * *

أما قصة ثورة ابن الأشعث ، فليست ثورة من الموالي ضد بني أمية .. كلا. إن قراءتها مفصلة تحدد سبباً آخر[3] .. فقد كانت بوادر الحسد متبادلة بين

---

(١) خدابخش ٣٦-٣٧ .

(٢) عبد الملك ٣٢٠ .

(٣) الطبري ١٤٠/٥ وما بعدها .

الحجاج بن يوسف ، وعبد الرحمن بن الأشعث ، قبل أن يتولى قيادة الجيش[١] المسمى جيش الطواويس ، وهو الجيش الذي وجهه الحجاج إلى سجستان سنة ثمانين للهجرة ، وانتصر انتصاراً كبيراً • ثم إن ابن الأشعث ، وهو قائد الجيش ، حبس الناس عن الوغول في أرض العدو حتى العام القادم[٢] • وعندها استحث الحجاج ابن الاشعث لمواصلة القتال ، ونال منه • فرفض ابن الاشعث هذا ، وخطب معلناً خلع الحجاج دون عبد الملك[٣] ، إلا أن جنده خلعوا عبد الملك أيضاً[٤] ••

فهل لمؤرخ منصف أن يدعي بعد ذلك أن سبب حركة ابن الأشعث حقد الموالي ، واحتقار العرب لهم ؟•• إن الانصاف للتاريخ يوجب أن نحدد سبب حركة ابن الاشعث بأنه نيل الحجاج منه عندما طلب إليه مواصلة القتال ، لأن الحجاج هو القائد العام في الجبهة الشرقية ، وهو الذي يشرف على هذا الفتح، ولأن ابن الأشعث رفض هذا الطلب وتمرد ••

أما إذا كان جيش ابن الاشعث يحوي آلافاً من غير العرب ، فإنه كان إلى جانب هؤلاء آلاف من العرب الأقحاح جميعهم تمردوا معه على الحجاج وعلى عبد الملك • فقد ذكر الطبري أنه « اجتمع أهل الكوفة وأهل البصرة وأهل الثغور والمسالح بدير الجماجم ، والقراء من المصرين (الكوفة والبصرة) اجتمعوا جميعاً على حرب الحجاج ، وجمعهم عليه بغضهم ، والكراهية له ، وهم إذ ذاك مئة ألف مقاتل ، ومعهم من مواليهم بقيادة ابن الاشعث، وهم يطلبون عزل الحجاج • »[٥] •

هذا هو السبب الحقيقي لحركة ابن الاشعث : تمرد قائد ، وبغض الجند

(١) انظر حديث الشعبي مع الحجاج وابن الاشعث : الطبري ٥/١٤٠ الكامل ٤/٧٤ •

(٢) الطبري ٥/١٤٢ الكامل ٤/٧٤ •

(٣) الطبري ٥/١٤٧ الكامل ٤/٧٨ •

(٤) الطبري ٥/١٤٨ الكامل ٤/٧٩ •

(٥) الطبري ٥/١٥٦ •

للحجاج ، والهدف منها عزل الحجاج لا أكثر ولا أ قل •• فأين هذا من فلسفة الحوادث على غير حقيقتها ؟••

* * *

أما إذا جاء بنو العباس ، واعتمدوا في حركتهم على الموالي ، والفرس منهم خاصة ، فإن هذا لا يجعل الثورة العباسية ثورة من الموالي ، أو من الفرس ، موجهة ضد العرب ••

نحن نؤكد عروبة الدعوة العباسية لأن التاريخ يؤيد هذا ••

فالقادة المنظمون لهذه الحركة عرب أقحاح ، وقائد الجيش الذي قضى على الدولة الأموية عبد الله بن علي ، عربي عباسي ••

ولئن كانت الدعوة العباسية قد استغلت كل الظروف ، واستفادت من جميع العناصر الناقمة على الدولة الأموية ، فإن هذا الاستغلال لا يغير من طبيعتها ••

استغلت مآسي آل البيت ، وادعت الثأر لهم •• حتى اذا استقرت ، ووصلت إلى ما تصبو إليه ، نكلت بآل البيت العلوي بصورة أشد مما فعله بنو أمية بهم••

واستغلت خراسان كبيئة لامثيل لها في رقاع الدولة الإسلامية صالحة لبث الدعوة ، واعتمدت على الفرس ، ورفعتهم إلى مكانة عالية جداً •• فالقائد الأول في الدعوة هو أبو مسلم الخراساني••والوزير الأول في الدولة العباسية أبوسلمة الخلال ، ومع ذلك فعندما تمكنت الحركة العباسية من السيطرة على الأرض الإسلامية ، ورسخت أقدامها،كان منها أن جعلت قاعدة الدولة العراق لاخراسان• وكان منها كذلك أن أزالت من الوجود الوزيرالأول الذي قتل بتدبير من أبي العباس السفاح ، ثم قضت على القائد الأول على يد أبي جعفر المنصور بعد أن انتهت مهمته ، وبعبارة أخرى انتهى زمن استغلاله ، حتى إذا بدأ هو يستغل مكانته في الدولة لقي مصرعه ••

* * *

إن عروبة الحركة العباسية تجعلنا نرفض الفكرة التي أتى بها المؤرخ الهندي خدابخش عندما تحدث عن الثورة العباسية وقال : « وقد كانت الكوفة هي مركز المؤامرة كما كانت مركز السبئية . وهي الفرقة المغالية من الشيعة . وكان الموالي الفرس هم الذين وضعوا نواة كلا هاتين الحركتين،وتعهدوهما،ووجهوهما ضد السيطرة العربية في الإسلام .. »[1].

هذه الفكرة ليست صحيحة ، وإنما المنطق الصحيح أن يقول المؤرخ أن الفرس كانوا مطايا تحركها أيدٍ عربية حيث تريد ..

* * *

وأخيراً نحب أن نلاحظ أن مشكلة الموالي ــ إذا كانت مشكلة ــ فهي في حقيقتها نزعة قومية في العراق،وإيران فقط ، وأنه لا أثر لها في الشام ومصر[2].

* * *

٤ ــ أما رأي جولد تسهير بأن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كان لجهله بالسياسة ساعد على سقوط البيت الأموي ، فقول في غاية الغرابة والاستهجان..

لو جمعنا جميع الأسباب التي أدت إلى سقوط الدولة الأموية هل نجد واحداً منها نشأ بسبب من عمر بن عبد العزيز ؟.. لا .. فعهد عمر يمثل قمة الهرم في مجد بني أمية ، بل نقول إن عمر بسياسته قد ساعد على بقاء الحكم في البيت الأموي فترة أطول ، وربما لو كان الخليفة الذي جاء بعده قد نهج نفس السياسة، وسار هشام على سياسته التي عرفنا ، واقترب أكثر من سياسة عمر ، نقول ربما تغير وجه التاريخ الاسلامي ..

وإن نظرة الانصاف لتتجلى بكلمة أحد المؤرخين من الغرب بأنه منذ عهد عمر بن عبد العزيز صار للأمويين دولة عربية إسلامية منظمة على أساس من الوعي الذاتي[3]..

(١) خدابخش ٤٤ .
(٢) الدوري ٧٨ .
(٣) القوى البحرية ص ١٣٧ .

٥ ــ أما الرأي القائل بأن المعتــزلة قد ساهمت في تقويض دعائم البيــت الأموي فإنه رأي دقيق يحتاج إلى توضيح وشرح ، وفيه وجهة نظر ..

إذا كان المقصود بهذا الرأي أن المعتزلة بتدخلهم مع يزيد بن الوليد،ورفعه إلى سدة الخلافة ، وتأثيرهم عليه قد ساهموا بتخريب الحكم الأموي ، فهــذا فيه صحة ، وواقعية ، لأنهم كأشخاص حملة سلاح قد أيّدوا يزيد تأييداً فعالاً، وكان لهذا التأييد ردة فعل عملت على تفتيت الأسرة الحاكمة ..

أما إذا كان يقصد بهذا الرأي أن المعتزلة كحملة فلسفة معينة قد ساهموا بتقويض البيت الأموي ، فهذا غير صحيح .. لأن هذه الفلسفة لم تكن قد اكتملت في العهد الأموي . فهي عندما بدأت بالنمو اجتثها هشام بن عبد الملك ، ولم تبرز إلى الوجود إلا في فترة محدودة زمن يزيد بن الوليد .. ولم تنشط إلا بعد أن أيدتها الدولة العباسية ، فاحتمت بنفوذها ، واعتنقها بعــض الخلفاء الأوائل ، فاستكملت كل مقوماتها ، كفلسفة كاملة ، بعد أن كانت مسائلها الأولى « إنمــا ظهرت في العهد الأموي »[١] ..

* * *

أما المرحوم الدكتور أحمد أمين ، فإنه يعتبر أن المعتزلة قد أيدت الحكم الأموي .. وقد نقلنا قوله وحجته وناقشناه ..

* * *

٦ ــ أما الرأي الذي يعتبر أن قتــل الخليفة الوليد بــن يزيد كان إيذاناً بانقضاء الدولة الأموية ، فهو رأي صحيح .. إذ أن هذه الجريمة قد أدت إلى فكرة الثأر بين القيسية واليمانية ، وإلى تنافس الأسرة الحاكمة ، وتمزقها ، رغم أن مروان حاول جمعها ، وقد جمعها ظاهراً فقط ، أما في الباطن ، فإن الأسرة كانت

(١) شاكر مصطفى ١/٧٧ نقلا عن كريمر ٤٥ .

متمزقة من جراء تلك الجريمة . وانتهت هذه الأسرة بأن جرفها التيار العباسي المتدفق من خراسان ...

ولقد تنبه لهذا في حينه بعض بني أمية .. فقد عرفنا كيف أن مروان تنبّه إلى خطورة الفتنة التي بدأها يزيد بن الوليد بخلع الوليد[1] .. كما تنبه لهذا العباس بن الوليد .. قال حين سمع أخاه بشراً يحرضه على خلع الوليد ، والبيعة ليزيد : يا بني مروان إني أظن أن الله قد آذن في هلاككم . وتمثل قائلاً :

إني أعيذكمُ بالله من فتنٍ ... مثل الجبال تسامى ثم تندفع
إن البرية قد ملّت سياستكم ... فاستمسكوا بعمود الدين وارتدعوا
لا تلحِمَنّ ذئاب الناس أنفسكم ... إن الذئاب إذا ما ألحمت رتعوا
لا تبقرنّ بأيديكم بطونكمُ ... فثَمّ لا حَسْرة تغني ولا جزع[2]

* * *

بيد أن هذا السبب ليس رئيسياً . فقد حدث تمزق في هذه الأسرة إثر تنازل معاوية الثاني عن الحكم أدى إلى صدام مسلح زمن مروان بن الحكم . ثم حدث التمزق نفسه زمن عبد الملك عندما خرج عليه ابن عمه عمرو بن سعيد ، واستقل بدمشق حين كان عبد الملك متوجهاً إلى قرقيسيا ، فارتد إلى دمشق ، ودخلها ، وقتل عمرو بن سعيد ، وبذلك عادت الدولة الأموية إلى وحدتها وقوتها ..

* * *

٧ ـ أما رأي أستاذنا العميد العش فإنه يعتمد مرتكزات ثلاث هي التي آلت بصرح الدولة إلى الانهيار ..

آ ـ انتقال الخلافة بقوة السيف ، كما هو شأن يزيد الثالث ومروان ..

---

(١) انظر ما سبق ص ١١٢ .

(٢) الطبري ٥/٥٤٥ .

ب ـ الابتعاد عن العصبية المتمثلة في أهل الشام من العرب الأصليين وخاصة بنـي كلب ..

جـ ـ الفورة النفسية للجيل الذي عاصر سقوط الدولة فكانت ظرفاً مناسباً ساعد على السقوط ..

وقد ناقشنا السبب الأول وقلنا رأينا فيه(١) ..

وأما السبب الثاني فقد بحثناه عند حديثنا عن العصبية القبلية(٢)..

ونزيد الآن بصدد الاعتماد على عصبية معينة ، عصبية أهل الشام وخاصة بني كلب .. فنقول : إن الاعتماد في الحكم على عصبية أهل الشام هو من جملة الأسباب التي حدث بالعراق إلى الثورة على الحكم الأموي .. ومثل هذه الفلسفة في الحكم والسياسة غير صحيحة لأن الدولة ليست خاصة بأهل الشام ، فهناك مناطق أخرى يجب أن تشعر بأنها موضع ثقة ورعاية الدولة ..

أما اعتماد الخليفة على بني كلب ، فإنه سيثير القبائل القيسية ، وهي لاشك قبائل لها وزنها ، ومكانتها في المجتمع العربي ، ومثل ذلك يحدث في المجتمع من الفتن ما ليس فيه الخير للدولة بحال ..

إن الذي يعتمد في بقائه على شطر الشعب ليس بأفضل ممـن يعتمد على الشـطر الآخـر .

نقطة الضعف الأساسية في نظام الحكم الأموي هذا الاعتماد المركز على فئة معينة من الشعب مهما تكن هذه الفئة .. وإذا صدف أن سكتت الفئة الأخرى لقوة الدولة ، أو لظروف خاصة ، فإنها ستتربص بنظام الحكم الدوائر ، وتلتف حول كل مناوىء .. وهذا ما حدث في الحكم الأموي ..

---

(١) انظر ما سبق ص ١٤١ .

(٢) صحيفة ١١٥ .

أما عن نقل العاصمة إلى حران فسيأتي الحديث عنه بعد قليل عندما نتكلم عن دور مروان في سقوط الدولة[1] .

أما تعليل الحوادث التاريخية في عصر من العصور بالفورة النفسية التي يتصف بها جيل ذلك العصر ، فإنه رأي جليل يدل على استقراء عميق . وقد انفرد به أستاذنا — فيما نعلم — من بين المؤرخين ..

يوضح أستاذنا هذه الفورة النفسية عند حديثه عن أعداء الدولة الأموية فيقول : « والعدو الرابع ، وهو أشد الأعداء قوة وفتكاً . هو تلك الفورة النفسية التي تنتاب العرب جيلاً دون جيل . ولا يسعنا هنا أن نذكر طبيعة تلك الفورة الدورية وسببها الأصلي لكن علينا أن نسجلها .

بدأت تلك الفورة في العصر الجاهلي فأثارت فيه النعرات والخلاف والغزو والنهب ، ثم خمدت بعد الهجرة جيلاً واحداً حوالي أربعين عاماً . وعادت عند فتنة عثمان . وكان لها أن تستمر في عهد معاوية ، لولا حسن سياسته التي خففت من قوتها ووجهتها نحو الفتوح ، فشغلها بعمل آخر . لكن معاوية ما كاد يتوفى حتى تركت الفورة الثغور ، وعادت بين العرب أنفسهم . واستمرت حتى انتهت بانتهاء جيل الفتنة الذي ابتدأت به ، ثم اختفت جيلاً آخر أي حوالي أربعين عاماً فعادت في أواخر عصر هشام . واستمرت إلى آخر الدولة الأموية »[2].

ونحن نقبل تعليل الحوادث التاريخية بهذه الفورة النفسية ، ولكننا نضع شرطاً نعتقد أنه إذا لم يتوفر لا يمكن قبول المبدأ برمته . هذا الشرط هو أن يكون المجتمع مغلقاً ، أو على الأقل شبه مغلق . ولقد كان المجتمع العربي في العصر الراشدي والعصر الأموي قريباً من مظاهر القبلية الأولى في طابعه العام، يعتز بعشيرته وبقومه ، يعيش حياة المحارب، يقلل من الاختلاط بالمجتمعات الأخرى إلى حدٍ ما .. ولذلك جاز قبول المبدأ ..

---

(١) صحيفة ١٥٣ .

(٢) الدولة الاموية ٣٣٨ .

أما إذا كان المجتمع مفتوحاً على غيره بشدة ، كما هو الأمر بالمجتمع العباسي، فإن الأمر يختلف تماماً عن المجتمعات الأولى •• لقد دخلت المجتمع العــربي في العصر العباسي عناصر غير عربية كان لها دورها الهام في المجتمع ، وكان التمازج بينها وبين العرب شديداً جداً •• مثل هذا يهمد الفورة النفسية ، وهو إن لم يقض عليها ، فإنه على أقل تقدير يخفف كثيراً من تأثيرها ••

ونحن نتفق أيضاً مع أستاذنا الجليل بأن رئيس الدولة يستطيع بشخصيته أن يلعب دوراً هاماً جداً في تأخير أثر الفورة النفسية •• ونضيف إلى ذلك بأن الجيل الهادىء يستطيع رئيس الدولة بتصرفه الأخرق أن يجعله جيلاً يغلي بتلك الفورة النفسية ••

* * *

بعد كل ما ذكرنا نرى مع واضع هذا المبدأ أن الفورة النفسية تعتبر ظرفاً ملائماً للعوامل الأخرى في سقوط الدولة ••

الرأي الشخصي :

نحن نرى أن السبب الحقيقي الهام الذي أدى إلى تقويض الحكم الأموي بدأ منذ معاوية واضع اللبنة الأولى في صرح ذلك الحكم ، وأخذ يتفاقم ويتفاقم••

ولئن خفف من تأثيره في الصدر الأول قوة الخلفاء وشدة سيطرتهم وحزمهم حتى آل الأمر إلى هشام بن عبد الملك ، فإنه عاد إلى الظهور في عهد من جاء بعده من الخلفاء لانعدام تلك القوة ••

وقد حاول مروان أن يدعم أساس الحكم بحزمه إلا أن هذه المحاولة ، فيما لو نجحت ، لن تؤتي أكلها لأنها لم تهتد إلى أصل الداء ••

فما هو هذا السبب ؟••

هذا السبب يتمثل في ابتعاد الحكم الأموي عن نظــام الحكم في الإسلام

الذي يجعل الناس سواء لا فرق بين غنيهم وفقيرهم ، رفيعهم ووضيعهم ،حاكمهم ومحكومهم ، لا فرق بين الحر والعبد .. ولقد توضحت أصول هذا النظام في التشريع الإسلامي أتم وضوح ..

* * *

هنا قد يتبادر للخاطر هذا السؤال : هل خرج خلفاء بني أمية عن الإسلام؟. وكيف استطاعوا البقاء في الحكم قرابة قرن ؟..

نحن لا نقول هذا وإنما نقول ونؤكد أن الطابع العام للحكم الأموي لا يأتلف مع الحكم الإسلامي ..

في نظام الحكم الأموي الكلمة الأولى للدولة أولاً وبعبارة أدق لمصلحة البيت المالك ثم للإسلام،والحكم يدور ويتمركز حول تلك المصلحة..هذه نقطة هامة جداً تحمل في طياتها خلق أحقاد شخصية عند الناس ، أو بعضهم على الأقل ، للبيت الحاكم..وهي من جهة أخرى غير مستقرة،فربما اقتضت المصلحة الاقتراب من فئة من الناس حتى إذا زالت تلك المصلحة اندفع الخليفة إلى فئة أخرى ... وهكذا ...

إن الحكم الأموي ارتكز منذ نشأته على العصبية القبلية ، لا في العاصمة فحسب ، بل امتدت جذور هذه العصبية إلى الولايات .ومثل هذا يتنافى مع فكرة أبوة الخليفة لرعاياه جميعاً ، وهي القاعدة المقررة في نظام الحكم الإسلامي ... فالتدرج « في المكانة عند بني أمية من ذمي ، إلى مولى ، إلى عربي غير شامي ، إلى عربي شامي ، إلى أموي ، إلى خليفة ، ظاهرة مميزة من مظاهر الحكم الأموي »(١) .. وبعبارة أخرى إن « الخليفة هو السلطان الأوحد ، ومن حوله حاشيته من بني أمية يرقون أعلى من غيرهم . ويحق لهم ما لا يحق لغيرهم ، ثم يأتي العرب من أهل الشام الذين ذكرناهم ، ولهم من الحقوق ما يعلو غيرهم من

(١) الدولة الاموية ٣٢٩ .

العرب الآخرين ، وحصتهم من الغنائم أكبر من حصة غيرهم •• »[1] •

يقول أستاذنا العسيد في هذا الموضوع إن « الإسلام حجر الزاوية في الحكم الأموي منذ نشأته • على أن الأمويين بأثر من حكمهم الفردي اضطروا أن يفهموا من أصول الحكم في الإسلام غير ما فهمه أبو بكر وعمر • ذلك أن نظرتهم للحكم غير نظرة الراشدين • فالحكم عندهم سلطان الفرد ، والخليفة عندهم ظل الله على الأرض ، فليس من رقابة على الخليفة ، وعلى أعماله ، وليس للشعب أن يبدي رأيه فيه ، أو أن يخالفه في أوامره • إن الحاكم الأموي يقيم شعائر الدين وقد أقامها أكثر الحين ، ويسير مع الإسلام ، ويحاسب نفسه فيه ، لكن إن خرج عليه في حكم فليس لأحد أن يحاسبه إلا الله ، وليس للشعب أن يحاسب الخليفة ، أو آل الخليفة ، فيما يفعلون ••• »[2] •

نحن لا نقول إن الخليفة الأموي كان يترك الفرائض ، أو يهمل شعائر الإسلام ، إنما نقول أن أسس الحكم التي صورها أستاذنا الجليل أدق تصوير هي أسس تختلف عن الأسس التي يقوم عليها نظام الحكم الإسلامي •

أما أن يستمر الحكم الأموي قرابة قرن فاستمراره ليس دليل صلاحه • إن استمراره يقوم على عناصر مادية : شخصية الخليفة ، دهاؤه ، كرمه ، قوة الدولة ••• حتى إذا انعدمت ، أو خفتْ شدة تلك العناصر المادية ، رأينا كيف أن الحكم ينهار بسرعة عجيبة انهياراً كاملاً كالقصر العظيم الذي أساسه من ملح، وقد نزلت أمطار غزيرة ••

* * *

لو جمعنا آراء المؤرخين في تبيان سبب انهيار الحكم الأموي ، وضفرناها معاً ، وقلنا : إن سبب سقوط الحكم الأموي يعود إلى العصبية القبلية ، وإلى

---

(١) المرجع السابق ٣٢٨ •

(٢) الدولة الاموية ٣٣١ •

العصبية العربية المستعلية على الموالي ، وإلى الاستبداد والجور ، وافتراق كلمة الأسرة ، وإلى حركات الخوارج القوية المستمرة ، وإلى تطلع آل البيت للثـأر لشهداء كربلاء •• لو جمعنا كل ذلك وقرنا أنه حقيقة قائمةلقلنا إن هذه الأسباب قد اختفت تماماً عندما قام أحد الأمويين ، عمر بن عبد العزيز يؤسس حكمه على أسس نظام الحكم الإسلامي ••

استطاع هذا الخليفة الصالح أن يسكت كل ناقم ، أو حاقد على آل أمية ، لا بقوة الجيش والسلطان ، ولا ببث الجواسيس ، إنما بقوة أصول الحكم التي قامت على العدل والمساواة[1] ••

رضي عنه الخوارج ، فلانت شوكتهم ، واختفت[2] ••

ورضي عنه آل البيت ، لأنه رفع الظلم عن واحد منهم كان في التعذيب منذ فتـرة[3] ••

رضي عنه الموالي لحسن معاملته ، ورفع الجزية عمن أسلم منهم••

تطلعت عيون بعض بني أمية إلى خزانة الدولة ، فعشيت ، لأن عمر ردها خائبة[4] •• وساواهم بالناس تماماً[5] •• فنقموا عليه لأجل ذلك[6] ولكنـه أسكتهم بأنه كان هو وأولاده قدوة لهم في كل شيء ••

رد المظالم والأراضي إلى أصحابها[7] ••

عزل الولاة الظلمة الذين لا يعرفون العدل والإحسان في ولايتهم[8]••

* * *

(١) انظر بيانه السياسي وخطته في الحكم • سيرة عمر بن عبد العزيز ٦٩ـ٨٠ •
(٢) المرجع السابق ٨٣ ، ٨٩ ، ١٢٧ •
(٣) المرجع السابق ١١٩ـ١٢٠ •
(٤) المرجع السابق ٥٢ •
(٥) المرجع السابق ٦٣ •
(٦) نفس المرجع ١٤٧ـ١٤٨ •
(٧) نفس المرجع ٥٨ـ٥٩ •
(٨) نفس المرجع ٢٧ـ٢٨ •

تلكم هي أسس سياسة عمر [١] ، فهل تحتاج هذه السياسة إلى عصبية قبلية لتدعيمها ؟.. إنها سياسة يدعمها النـاس جميعاً : قيسيتهم ويمنيتهم ، علـويتهم وخارجيتهم . سياسة للجميع ، يدعمها ويؤيدها رب الجميع .

* * *

هذه السياسة الإسلامية كانت غريبة عن الطابع العام لنظام الحكم الأموي .

حتى إذا مات عمر دفن معه كل ما قام به من عمل صالح ، وسياسة رشيدة .. وهاهو ذا يزيد بن عبد الملك[٢] حين ولي الخلافة ينقض كل عمل لعمر [٣] ، بل وينال منه .. كتب إلى الولاة : أما بعد ، فإن عمر كان مغروراً ، غررتموه أنتم ، وأصحابكم ، وقد رأيت كتبكم إليه في انكسار الخراج والضريبة، فإذا أتاكم كتابي هذا فدعوا ما كنتم تعرفون من عهده ، وأعيدوا الناس إلـى طبيعتهم الأولى : أخصبوا أم أجدبوا ، أحبوا أم كرهوا ، حيوا أم ماتوا .. والسلام »[٤] ..

هذا الخليفة الذي وصفه شقيقه سليمان بالسفيه وهمّ أن يحجر عليه[٥] يصف عمر بن عبد العزيز بالغرور !.

أعاد يزيد سياسة من سبق عمر من الخلفاء فأحدث رد فعل لدى الناس .. فقد تحرك الخوارج بثورة في العراق بقيادة شوذب وذلك سنة ١٠١ هـ[٦] ... وعادت الأمور تسير وفق الأهواء والعصبية .

* * *

---

(١) في تحليل سياسة عمر الاصلاحية انظر العميد العش ٢٤٦ـ٢٦٤ فهو أدق تحليل وامتعه ..
(٢) في ترجمة يزيد ، انظر : الطبري ٥/٣٧٤ـ٣٧٥ الكامل ٤/١٩١ـ١٩٢ تاريخ الخلفاء ١٦٣ـ١٦٤ الامامة والسياسة ٢/١٩٧ـ١٩٨ .
(٣) الكامل ٤/١٦٦ ابن خلدون ٣/١٦٥ .
(٤) العقد الفريد ٤/٤٤١ ـ ٤٤٢ .
(٥) العقد الفريد ٤/٤٢٧ ـ ٤٢٨ .
(٦) الطبري ٥/٣٢٦ الكامل ٤/١٦٦ .

إن تجربه عمر بن العزيز رائدة ، لأنها جاءت وسط خضم من المناوئين . والحاقدين ، والمتشوّفين للسلطة . وفي نفوسهم غلٌّ تجاه الأسرة الحاكمة . رغم ذلك استطاعت في فترة وجيزة جداً أن تزيل كل شيء . وتقدم للشعب كل ما يريد من رفاهٍ وسعادةٍ ..

وخير ما نختم به هذا الفصل قول أستاذنا العسيد العش في ختام حديثه العلمي الرائع عن عمر : « كانت حياته كشعلة من شمع تتهج وتتقد . وهي سريعة الانطفاء . أقام في الخلافة سنتين ونصف السنة . والشمعة تحترق بأقصى قوة الاحتراق ، حتى وافاه أجله ، وهو في ريعان الشباب . فمات . وهو مطمئن أنه أرضى ربه ، وأنه حكم بالعدل ما وسعه في حكمه . فما أصلحه مثلاً يحتذى . وما أعظمه .. »[1] .

* * *

(١) الدولة الاموية ٢٦٤ .

دور مروان في سقوط الدولة

لقد عرضنا أسباب سقوط الدولة الأموية فيما سبق من هذا الفصل . والآن بعد أن سقطت الدولة زمن مروان نتساءل : ما هو دوره في هذا السقوط ؟..

ذكرنا عند بحثنا عن معركة الزاب بعض الملاحظات العسكرية التي أدت إلى الفشل الذريع والهزيمة النكراء ..

والآن نعرض الجوانب السياسية التي فاتت مروان ..

* * *

مروان قائد عسكري ، قبل كل شيء .. والطبيعة العسكرية تغلب عليه .. وهي طبيعة خاصة من مميزاتها الاستهانة بالأخطار والاستهانة بالخصوم..

وهذه النفسية هي التي كلفت مروان نهايته المحتومة وبالتالي نهاية حكم أسرته في المشرق ..

* * *

اطلع مروان على حال خراسان وكيف أن واليه عليها نصر بن سيار يتعرض لخطر شديد ، ومع ذلك يكتب لنصر : الحاضر يرى ما لايرى الغائب فاحسم الثؤلول[1] .فكان جواب نصر: «الثؤلول قد امتدت أغصانه وعظمت نكايته»[2].

لقد بلغ به احتقار الثورة العباسية إلى حد وصفها بالثؤلول ..

إن الثقة بالنفس مزية جيدة ، ولكن إذا وصلت إلى حد احتقار العدو ، فإنها تكون قاتلة ..

---

(١) الكامل ٤/٣٠٣ .

(٢) العقد الفريد ٤/٢١٠ .

كان قتيبة بن مسلم قد ألمت به أمور هامة ، وأخذ يفكر في فئة خرجت عليه، كيف يقضي عليها .. فقيل له : ما يهمك منهم : وجّه إليهم وكيع بن أبي مسعود فإنه يكفيهم .. » فأبى وقال : لا .. إن وكيعاً رجل به كبر ، يحتقر أعداءه ، ومن كان هكذا قلّت مبالاته بعدوه ، فلم يحترس منه ، فيجد عدوه منه غرة .. »[1] وهكذا كان مروان ..

ولعل عذر مروان أنه كان في الوقت الذي علم به بأمر خراسان مشغولاً بحروب داخلية في بلاد الشام[2] ، ولهذا نراه يطلب من والي العراق يزيد بن عمر ابن هبيرة أن يمد نصراً بالرجال ، فتباطأ رغم تعدد كتب مروان إليه[3] .

وعذر مروان من جهة أخرى أن ولاته لم يكونوا على ارتباط فيما بينهم رغم شعورهم بالخطر المحدق بالدولة . فهذا نصر بن سيار يكتب إلى ابن هبيرة ، بعد الهزيمة من قومس إلى خوار الري ، يستمده ، فيحبس ابن هبيرة رسل نصر[4] .

وربما كان سبب هذا التصرف من والي العراق أنه أحب أن يضع من أمر نصر ، فهو لا يمده بالرجال ، وهو إذا علم بأمر يتعلق بخراسان لم يطلع نصراً عليه[5] .. وقد حاول أحد المؤرخين أن يبرر تصرف يزيد بن عمر ، فذكر أن يزيد تعلل لمروان بأن من معه من الجنود لا يزيدون عن اثني عشر ألفاً ، وأن مخصصاتهم دون مخصصات جند الشام ، وهم من جهة أخرى في قلوبهم إحن وحقد نحو خلفاء بني أمية[6] ..

وسواء صح هذا أم لم يصح ، فالمهم أن مدد العراق لم يرسل إلى خراسان في الوقت المناسب ، وهذه خيانة ، وأي خيانة !..

* * *

---

(١) عبقرية خالد ٨ .
(٢) حتي ٣٥٥/٢ .
(٣) اليعقوبي ٣٤١/٢ .
(٤) الطبري ٦٣/٦ ابن خلدون ٢٦٨/٣ .
(٥) عيون الاخبار ١٢٨/٢ .
(٦) الاخبار الطوال ٣٤٢ .

ويأخذ بعض المؤرخين على مروان خطأ كبيراً ارتكبه « حين نقـل البلاط وإدارة الحكومة إلى حران في العراق بحيث أخذت قلوب أهل الشام تنصرف عنه .. »[١] . ويقول تيوفان : « إنه نقل أيضاً كل الأعمال مع بيـت المال من دمشق إلى حران ، وآل به هذا إلى نتائج خطيرة . فقد شعرت الشام بأجمعها مع دمشق بأنها سلبت الحكم ، يستثنى من ذلك قسمها الشمالي . وتشربت الخلافات الحزبية هذا الشعور أكثر فأكثر ، وتمنى الناس العودة إلى الأزمان السابقـة . وطبيعي أن العطف على العائلة الحاكمة الشرعية التي أطيحت عن العرش والتي كان لها اتصالات وقرابات في كل مكان لم تنتزع جذوره بسهولة بحيث ينتقل إلـى المغتصب الغريب الذي أمه أم ولد .. »[٢] .

ونحن نؤيد هؤلاء فيما ذكروه ، ونقول إن مروان عنـدما ابتعد عن دمشق فقد نصيراً قوياً انتبه إلى أهميته معاوية الأول ، فأوصى ابنه يزيد بأن يجعل أهل الشام بطانته ، وأن ينتصر بهم[٣] .

وبالفعل لقد ألف أهل الشام بني أمية ، فأصبح « هواهم في بني أميـة ، وحب بني أمية قد رسخ في قلوبهم »[٤] ..

وعندما همّ أهل العراق بالغدر بمصعب بن الزبير قال قيس بن الهيثم : « والله لقد رأيت سيّد أهل الشام على باب الخليفة يفرح إذا أرسله في حاجة . ولقد رأيتنا في الصوائف واحدنا على ألف بعير ، وأن الرجل من وجوههم ليغزو على فرسه ، وزاده خلفه »[٥].

والواقع أن معاوية منذ أيام ولايته أدرك طباع أهل الشام ، وأخلاقهم ،

---

(١) حتي ٢/٣٥٥ واللفظ له . العميد العش ٢٩٥ . وفي جعل حران مركزا له انظر : الطبري ٥/٦٠٧ المسعودي ٣/٢٦٠ .

(٢) مذكور في ولهاوزن ٣٠١-٣٠٢ .

(٣) ابن خلدون ٣/٤١ .

(٤) الفخري ٢٠١ .

(٥) الطبري ٥/٧ .

فماشاهم ، وساسهم أحسن سياسة ، فأخلصوا له أشد الإخلاص ، وحفظوا له أطيب الذكرى ، والتفوا حول بيته ، حتى أصبح آل أمية وجه دمشق المشرق . إلا أنه لما فشت العصبية القبلية ، واشتدت ، وأصبح الخليفة لفئة من الناس دون فئة ، واضطره هذا في بعض الأحيان أن يعرض عن اليمانية ، وهم معظم أهل الشام بدأ هؤلاء يبتعدون عن الأسرة الأموية قليلاً .. ولكن رغم كل ذلك بقي لبني أمية في قلوب أهل الشام محبة خاصة تجسدت في ثوراتهم بعد زوال البيت الأموي مباشرة ...

وربما كان عذر مروان في نقل العاصمة إلى حران أنها كانت مركز القيسية . وهؤلاء هم دعامته الكبرى في الوصول إلى الخلافة[1] ، وبين ظهرانيهم عاش والده ، ونشأ هو ، وفي هذه المنطقة كان يشعر أنه بين ذويه[2] . ثم إن هؤلاء هم الذين بايعوه قبل غيرهم[3] ، ولا يمكن أن يبقى عند سواهم . وهو من جهة أخرى لا يثق بالجيش الشامي واليمانيون فيه أكثرية[4] ..

أقــول :

إن هذا العذر غير مقبول لأن مروان بما وصف به من بُعد نظر ، وتفكير طويل ، كان يقدر أن يضم تحت جناحه اليمانية بأي أسلوب كان دون أن يغضب أصدقاءه القدامى من قيس ، وبهذا تعود للشعب وحدته ..

ولقد جنى مروان ثمرة نقل العاصمة بنفسه إذ اضطره ذلك لخوض معارك متعددة على أرض الشام دامت فترة من الزمن ، في وقت كانت فيه خراسان ترتجف بنصر بن سيار ، وقد بدت سحائب دخان كثيف تدل على ثورة بركان يمكن أن يجتث الحكم الأموي بكامله ..

* * *

---

(١) خطط الشام ٦/١ .

(٢) ولهاوزن ٣٠١ .

(٣) اليعقوبي ٣٣٧/٢ .

(٤) بروكلمان ١٩٧/١ .

هناك خطأ آخر ارتكبه مروان . وهو أنه لم يستفد من السياسة ، والمال في تفتيت خصومه .. كان عليه أن يلجأ إلى كل أسلوب سياسي ليحد من قوة خصومه ومقاومتهم ..

لقد أخطأ حين ولّى ثابت بن نعيم فلسطين ، لأنه يعرف خطره ، ولكن هذا الخطأ يمكن أن يخف كثيراً لو ترك إلى جانب ثابت رجلاً عيناً عليه لمروان من جهة ، ومن جهة أخرى كي يحد من قيمة ثابت بين أصحابه ، أو يتولى هذا الرجل معظم أعمال الوالي بحيث يكون الوالي مجرد رمزٍ فقط ، لأن مروان لم يكن يستطيع عزله في ذلك الوقت حتى لا يثور الناس عليه ..

أخطأ أيضاً عندما ترك سليمان بن هشام في الرصافة ، فلو استبقاه لديه ، كمستشار مثلاً ، فترة أطول ، ولم يدعه يذهب إلى الرصافة حيث كان والده هشام قد اتخذها مقراً له ، لأمكن مروان أن يملك رأس الفئة المناوئة له .. ولو فعل لتجنّب فتناً داخلية شغلته عن خطرٍ داهمٍ تدفق من خراسان ..

أخطأ كذلك عندما جنّد جيشاً مؤلفاً من عشرة آلاف مقاتل ، ووجّههم للعراق إلى قتال الخوارج رغم معرفته بأن هذا الجيش قد تمرد عليه قبلاً في دير أيوب .. حتى إذا تحرك هذا الجيش نحو العراق مر بالرصافة ، فدعا سليمان ابن هشام للتمرد ، فاستجاب ، وخلع مروان سنة ١٢٧هـ[١] .. ويتجلى هذا الخطأ حين نعرف أن فترة قصيرة جداً كانت تفصل بين تمرد هذا الجيش وتوجيهه إلى العراق ، وأن هذا الجيش قد أرسل إلى العراق دون قيادة تميل إلى مروان .. فهل يعقل أن ينقلب متمردون مسلحون من أعداء للخليفة إلى مدافعين عنه بين ليلة وضحاها؟ . بل ماذا ينتظر من هذا الجيش غير التمرد مجدداً كما تمرد من قبل وهكذا كان ...

* * *

---

(١) الطبري ٥/٦١٠ الكامل ٤/٢٨٧ .

لقد سبق لعبد الملك أن جابه أخطاراً أشد مما جابهت مروان •• فالروم من جهة وعبد الله بن الزبير[1] ، والخوارج[2] ، وأهل قرقيسيا ، والقيسية من جهة أخرى • يضاف إلى ذلك حركة خطيرة لآل البيت[3] ، ورجل من البيت الأموي يستغل خروج عبد الملك إلى قرقيسيا . فيعلن في دمشق عـزله . ويتمرد عليه ، وهو عمرو بن سعيد بن العاص •• هؤلاء هم أعداء عبد الملك •• لعب المال والسياسة في عدم تحركهم في وقت واحد ، فما هو تصرف عبد الملك ؟••

الروم لهم الجزية يؤديها عبد الملك ، وعمرو بن سعيد له العودة السريعة إلى دمشق ، والقتل بيد عبد الملك نفسه،وأمير قرقيسيا له الصلح والمال الوفير، وأما الخوارج وابن الزبير فلهم الانتظار حتى ينتهي القتال الدائر بينهم ، حتى إذا انتهى بظفر فريق بعد إنهاك قوته انقض عليه عبد الملك بجيش مستريح مستعد للقتال ••

كان عبد الملك يعرض الأمان لأعدائه ويستميل قوادهم بشتى الوسائل ••

كل هذه المواقف تدل على مدى مرونة شخصية عبد الملك ، وحسن سياسته، ومراعاته للظروف •• إذ لكل داءٍ دواء ••

أين سياسة عبد الملك المرنة في مجابهة الأعداء كافة من سياسة مروان ؟••

لقد كان حرياً بمروان أن يحتذي خطوات عبد الملك ، ولو فعل لفتت خصومه واحداً بعد آخر •• ولكنه لم يفعل ، فاتحد هؤلاء ، وتكاتفوا ، ووضعوا

---

(١) امتدت دولة ابن الزبير فشملت الحجاز والعراق وخراسان ومصر • وكاتبه امير دمشق الضحاك بن قيس الفهري وامير حمص النعمان بن بشير الانصاري وامير قنسرين زفر بن الحارث الكلابي•

(٢) كان للخوارج دولتان : الاولى دولة الخوارج الازارقة وتشمل منطقة الاهواز ، والثانية تشمل اليمامة والبحرين وعمان وحضرموت واليمن ••

(٣) لم يكن للشيعة دولة منظمة بل كان لهم قوة كبيرة مركزها الكوفة ،وقد قامت حركة التوابين بقيادة سليمان بن صرد الخزاعي حتى اذا هزمت ، خلفتها حركة المختار بن ابي عبيد الثقفي ، وامتد سلطانه حتى شمل العراق ــ عدا الكوفة ــ وارمينية واذربيجان والمدائن •

أمامهم هدفاً واحداً هو إبادة مروان والدولة الأموية . وقـد وفقوا ، وحققوا الهـدف ..

وعذر مروان ، فيما نرى ، يعود إلى طبيعته ، كقائد عسـكري أكثر مـن سياسي يرأس دولة تعج بالفتن والأعداء ..

في كل الأخطاء التي ذكرناها نلمح شخصية مروان المعتدة بذاتها ، وبقدراتها، المستهينة بكل عدو ، المستهينة بكل خطر ..

وكأني أتخيل مروان يقول في نفسه : ماذا يصنع ثابت بن نعيم ؟.. وماذا يفعل سليمان بن هشام ؟.. أنا لهما بالمرصاد ، وهما دوني بكثير . حركة واحدة مني تقضي عليهما ، وماذا يصنع عشرة آلاف جندي كانوا تمردوا قبلاً إذا أرسلوا إلى حرب الخوارج ؟..

تلك هي نفسية مستعلية عنيفة ..

عيب مروان أنه يبدأ عدوه بالسيف ، فإذا خرج متمرد في مكان جرد لـه جيشاً ربما قاده بنفسه ، وكثيراً ما فعل ، مع أن هذا المتمرد في غالب الأحيان ليس بحاجة إلى السيف بل هو بحاجة لمال يقبضه ، أو ولاية يولاها ، أو وظيفة يشغلها، وما أرخص هذه الأشياء ، مهما كثرت ، وما أغلى السيف إذا جُرِّد ، ولو أعيد إلى غمده بعد قليل ..

لقد استطاع معاوية أن يفسد أقرب الناس إلى علي بن أبي طالـب ، وأن يضمهم إلى صفه بما بذله من مال ، وحسن سياسة ، وكان شعاره « لا أضـع لساني حيث يكفيني مالي ، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني ، ولا أضـع سيفي حيث يكفيني سوطي ، فإذا لم أجد من السيف بداً ركبته .. »[1].

عيب مروان كامن في طبيعته كقائد حربي من الطراز الأول،ولعله هنا يكمن

---

(١) معاوية : ابراهيم الابياري ٣٦٧ .

عذره ، رغم أن هذا العيب قد هدّ أركان الدولة أخيراً ، ولم تعـدله العبقرية العسكرية الفذة ..

ورب قائل يقول : إن مروان لم يكن حوله أي مستشار في مستوى رفيع من الخبرة ، والحنكة السياسية ..

ونحن نقول إن مروان ، لو وُفّق بمثل هذا المستشار لما استفاد منه ، لأن القضية ليست قضية وجود مستشار ، أو عدمه .. المسألة مسألة نفس مستعلية ، لا تقبل نصح ناصح ، ولا رأي مستشار ..

* * *

وختاماً لهذا الفصل نتساءل : ماذا صنع مروان بعد معركة الزاب .

لقد فرّ لا يلوي على شيء ، واستمر منهزماً من مدينة إلى مدينة ، حتى وصل قرية بوصير حيث لقي مصرعه فيها ..

إنه اجتاز رقعة واسعة جداً من الأرض منهزماً دون أن يُعدّ العدة لمعـركة أخرى على نطاق واسع ، أو يتخذ على الأقل موقفاً ينم عن تفكيره بمثل هذا الأمر .

وفي أثناء هزيمته مر على دمشق ، وعليها الوليد بن معاوية بـن مروان ، فطلب منه أن يقاتل بني العباس حتى يجتمع أهـل الشام ، ومضـى حتى أتى فلسطين[1] ..

ولقائل أن يقول : هل هذه خطة عملية ؟. كان عليه أن يقبع في دمشق ، ويتخذ للأمر عدته ، ويجمع الناس حـوله ، ويدخل في معـركة فاصلة ، أما أن يُفوّض والي دمشق أن يقاتل حتى يجتمع أهل الشام ، فأنى لوالي دمشق ذلك ، وقد شاهد رئيس الدولة ينهزم ؟..

ونحن نرد على هذا القول بأن مروان فكّر أن يتحصن بدمشق[2] إلا أنه

(١) الكامل ٤/٣٣٠ .
(٢) اليعقوبي ٢/٣٤٦ .

صـدم بما لقيه من أهل الشام من مقاومة في أثناء تراجعه، حتى إنه لم يكن يمر على جند من جند الشام إلا انتهبوه[١] •• لأنه فقد ولاءهم ، وولاء أهل الشام ، باعتماده على أهل الجزيرة ، وجيش الجزيرة ، وقد هُزم هذا الجيش في الزاب فلم يبق له من نصير يعتمد عليه ••

وربما فكر مروان أيضاً أن يتمركز في مصر ، ونحن نعرف أن مصر كالشام كانت تميل إلى بني أمية ، إلا أن هذا الهوى تغير أيام مروان •• فهذا ثابت بن نعيم يحرض أهل مصر على خلع مروان حين شخص إليهم بنفسه[٢] •• ولو لم يجد بينهم ما يشجعه على التصريح بخلع مروان لما فعل •• حتى إذا جاء مروان منهزماً ودخل مصر في أواخر شوال سنة ١٣٢ هـ وجد جيش مصر قد تنكر لـه ورفع الرايات السود شعار بني العباس[٣] ••

إن مجتمعاً هذا وصفه هل يمكن أن يعتمد عليه سواء في الشام أم في مصر؟•

إننا نؤيد ما قاله فان فلوتن بأنه « لم يبق على ولائه للبيت الأموي في ذلك العصر الممتلىء بالأنانية والخيانة والغدر إلا نصر بن سيار »[٤] •• وهذا تصوير حقيقي للواقع مدعوم بالشواهد التاريخية •

ولقائلٍ أن يقول : ما دام المجتمع كما ذكرت أما كان بإمكان مـروان أن يذهب إلى الروم ويستنجد بهم ؟••

هذا سؤال يَرِد •• وقد ذكر بعض المؤرخين أن مروان فكر بهذا وعرض فكرته هذه على أحد مستشاريه إلا أن هذا المستشار رفض الفكرة وحضه على الذهاب إلى الشام وإلى مصر[٥] ••

---

(١) اليعقوبي ٣٤٦/٢ •

(٢) الولاة وكتاب القضاة ٨٥ـ٨٦ •

(٣) الولاة وكتاب القضاة ٩٢ـ٩٣ ، ولاة مصر ص ١١٧ •

(٤) فان فلوتن ١٢٨ •

(٥) انظر ـ اذا رغبت ـ تفصيل هذا الحديث : المسعودي ٢٦٤/٣ وقد سمى المستشار وهـو اسماعيل بن عبد الله القشيري والاخبار الطوال ٣٤٦ وقد جاء فيه أن المستشار هو اسماعيل بن عبد الله القسري وهو الصواب لان هذا الشخص كان من مستشاري مروان ••• اليعقوبي ٣٤٦/٢ ••

ونحن نستبعد هذه الرواية لأنها تتنافى مع نفسية مروان المستعلية المستكبرة التي تعرف مكانها ، والتي كان لها فيما سبق جولات وصولات في حرب الروم • هذه النفسية المعجونة بالرجولة والفروسية تأبى أن تلتجىء إلى الروم طالبة حمايتها • ولو صح هذا لما كان أسهل منه،فبدلاً من أن يتجه إلى الجنوب نحو دمشق وفلسطين ثم إلى مصر ، وهي مسافة طويلة جداً ، فإنه إذا سار نحو الشمال دون هذه المسافة بكثير يصل إلى أرض الروم •• ثم إن فكرة الالتجاء إلى العدو لم يعرفها إلا الخلفاء الذين انعدمت الرجولة فيهم . والملوك الذين فقدوا شخصياتهم ، ولم يعرفها خلفاء المسلمين إلا بالزمان المتأخر ••

* * *

الفصل الخامس

النّهاية

نهاية مروان

إثر هزيمة مروان في معركة الزاب توجّه إلى حران ، فتبعه عبد الله بن علي، فارتحل منها بأهله وذويه ، وسار نحو قنسرين ، ومنها إلى حمص ، وقد غدر به أهلها فقاتلهم وهزمهم • ووصل إلى دمشق ، ثم منها إلى فلسطين[١] •• ويذكر بعض المؤرخين أن مروان قد خاض معركة عنيفة بنهر أبي فطرس من أرض فلسطين — قرب يافا — مع عبد الله بن علي انتهت بهزيمة مروان[٢] ••

كان مروان في هزيمته نحو مصر يحرق ما حوله من علفٍ وطعام[٣] حتى لا يستفيد منها خصومه •• وانتهت به الحال إلى قرية بوصير ، وهناك دارت معركة[٤] كان خصمه فيها عامر بن اسماعيل ، وهو قائد مقدمة جيش صالح بن علي ، وصالح كان على مقدمة جيش أخيه عبد الله بن علي[٥] •• وقد قتّل مروان بنتيجتها ، وقطّع رأسه ، وأرسل إلى السفاح[٦] • كان قتل مروان يوم الأحد لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ١٣٢ هـ[٧] •• وفي رواية ابن عساكر عن أبي السري أن قتل مروان كان في ١٣ ذي الحجة سنة ١٣٢ • وبرواية أخرى عن العمري أن قتله كان في ١٠ جمادى الآخرة سنة ١٣٢ • وعقب ابن عساكر على رواية العمري

---

(١) الطبري ٦/٩٢ـ٩٣ باختصار شديد برواية أبي هاشم مخلد بن محمد •

(٢) ابن العبري ٢٠٧ المقدسي ٦/٧١ •

(٣) انظر ما سبق ٩٦ •

(٤) تفصيل المعركة ومسير مروان الى مصر •• انظر : الامامة والسياسة ٢/٢٢٧ـ٢٣١ •

(٥) ابن عساكر ١٦/١٩٣ (٢) الكامل ٤/٣٣١ •

(٦) ابن عساكر ١٦/١٩٧ (١) الكامل ٤/٣٣٢ اليعقوبي ٢/٣٤٦ تاريخ الخلفاء ١٧٠ الاغاني ٤/٩٢ •

(٧) الطبري ٦/٩٧ •

قائلا : وهذا القول من العمري غلط ، لأن هذا تاريخ وقعة مروان بالزاب ومروان لم يقتل في وقعة الزاب انما انهزم وهرب .. » [1] ..

كانت هذه نهاية مروان ونهاية حكم بني أمية في المشرق ..

* * *

موقف بني العباس من الامويين

من قرأ الفظائع التي ارتكبها بنو العباس وقف دهشاً .. هل هذه خلق العرب أو خلق المسلمين ؟..

كان قائد الجيش المقاتل لبني أمية عبد الله بن علي..ولقد أحسن أبو العباس السفاح اختيار هذا القائد لأنه « كان أشد الناس على بني أمية .. »[2] ..

حين اقترب عبد الله من دمشق فرض عليها الحصار[3]،ثم دخلها عنوة ، وهدم سورها ، وقتل فيها من قتل[4] . وكان قتلاه من بني أمية فقط عدة آلاف[5] .. « ..وقد أباحها ثلاث ساعات،وقيل أنهبها ثلاثة أيام ، ووضع السيف في أهلها،ولم يزل جماعته يحزّون الرؤوس في الطرق ، والمنازل ،ويأخذون الأموال حتى جاء الظهر ، فأمر برفع السيف . وقُتل والي المدينة فيمن قُتل من الأمراء والعلماء حتى في المسجد الجامع .. وممن صُلب عبد الله بن عبد الجبار . ودخلت أباعر العباسيين إلى صحن الجامع الأموي ، وظل اصطبلاً لدوابهم وجمالهم سبعين يوماً . وقُتل يومئذ على رواية المنبجي من النصارى واليهود خلق كثير ، ونبشوا قبور بني أمية وغيرهم ، وأحرقوا رفاتهم بالنار ، ولم يبقوا على غير قبر عمر بن

---

(١) ابن عساكر ١٦/١٩٧ (١) .

(٢) العقد الفريد ٤/٤٨٧ .

(٣) وكان يحاصرها بخمسين الف مقاتل ، المسعودي ٣/٢٦١ .

(٤) الطبري ٦/٩٣ .

(٥) شذرات ١/١٨٨ .

عبد العزيز في دير سمعان اعترافاً بفضله وتقواه .. »(١) .

هذه النكبة الفظيعة التي حلت بدمشق أدت إلى ازدياد الهجرة منها إلى الأقطار السحيقة(٢) ..

وليس هذا بمستغرب ، فحقد بني العباس على بني أمية حقد عجيب جداً.. قدم عبد الله بن علي نهر أبي فطرس . فتلقاه الناس للسلام عليه ، وفيهم اثنان وثمانون من بني أمية . فاستقبلهم . وقتلهم . ثم مُدَّ البساط فوقهم،ودعا بالطعام، فجعل يأكل ، وأنين بعضهم تحت البساط(٣) .. ويروى أن أبا العباس السفاح فعل مثل هذا أيضاً(٤) ..

وهذا سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس يقتل جماعة من بني أمية بالبصرة. ويأمر بهم كي يلقوا في قارعة الطريق فأكلتهم الكلاب(٥) .. كان شعار بني العباس شعراً قاله سديف مولى السفاح :

لا يَغُرَّنك ما ترى من رجالٍ إنَّ تحت الضلوع داءً دويّا
فضع السيف وارفع السوط حتى لا ترى فوق ظهرها أمويا ..(٦)

وقد طبَّق بنو العباس شعارهم هذا أتم تطبيق ..

* * *

(١) خطط الشام ١/١٧٣ . هذا ولم يذكر المؤرخ المصدر الذي اعتمده حين ذكر نبش القبور . وقد عثرنا على نص يؤيد قوله في الكامل ٤/٣٣٣ .

(٢) حقائق تاريخية عن دمشق ـ محاضرة الاستاذ عيسى اسكندر معلوف .

(٣) الكامل ٤/٣٣٣ العقد الفريد ٤/٤٨٣ـ٤٨٤ .

(٤) العقد الفريد ٤/٤٨٠ .

(٥) الكامل ٤/٣٣٤ .

(٦) الكامل ٤/٢٩٩ .

رد الفعل عند الناس

تألم الناس أشد الألم لمثل تلك التصرفات التي لم يعرفها العرب قبلاً .فثاروا.

هذا شريك يثور في بخارى أيام السفاح ويقول : ما على هذا اتبعنا آل محمد . على أن نسفك الدماء و نعمل بغير الحق[1] ..

وهذا أبو العطاء الشاعر يقول :

يا ليت جور بني مـــروان دام لنـــا   وليت عدل بني العباس في النار[2]

وهؤلاء أهل الشام يثورون جميعاً ، سواء منهم القيسيون والكلبيون[3].. وانفجرت هنا وهناك ثورات عنيفة[4] شملت قنسرين والجزيرة وحران وواسط ودمشق وحوران ، واستمرت مشتعلة حتى ١٣٥هـ[5] .

بيد أن هذه الثورات رد فعل عاطفي .. فهي غير منتظمة ، وغير موحدة القيادة ، وليس لها هدف معين تسعى إليه ، وتجتمع حوله . وربما كان لها شأن آخر لو توفر لها العقل المدبر ..

* * *

(١) شاكر مصطفى ٧١/١ .
(٢) شاكر مصطفى ٧١/١ .
(٣) ولهاوزن ٤٣٩ أ. سيديو ٢٠٦ .
(٤) انظر تفاصيلها ـ اذا شئت التوسع ـ الطبري ٩٨/٦ ـ ١٠٧ الكامل ٣٣٤/٤ وما بعدها ، ابن خلدون ٣٧٠/٣ـ٣٨٣ .
(٥) ابن خلدون ٣٧٠/٣ـ٣٨٣ .

الخاتمة

لعل من المصادفات الغريبة أن تنتهي بنهاية حياة رجل دولة تعد أعظم دول الدنيا .. كذلك كان مروان والدولة الأموية .. كيف أعرض الناس عن البيت الأموي بهذه العجالة ، أهي الصدمة الصاعقة ، أم هي الهزال الذي يؤدي للموت أم أن الخليفة هو الذي عجل بالنهاية ؟..

نحن نقول إن الدولة ما كانت تنهار بتلك السرعة لولا وجود خليفة له شخصية خاصة ، طبعت أعماله وعصره بطابع خاص ، مما عجل بالنهاية ..

في شخصية مروان نجد القوة والفروسية ، ولأجل هذا اكتسب بجدارة صفة القائد العظيم . بيد أن الشعب ليس كالجند يؤمر ، فيطيع .. ولئن خنع فترة من الزمن تحت وطأة السلاح والقوة ، فإن الجسد هو الذي يخضع ويستكين أما النفس فلا تصل إليها يد حاكم مهما كانت قوته .. وهذه النفس تنتظر اللحظة المناسبة حتى تنفجر كالبركان الذي صادف أرضاً رخوة،فتدفقت حممه تسحق كل ما يصادفها أو يعترضها ..

كان مروان قوياً شجاعاً ، يعتمد على السلاح في كل أمر ، وهذا السلاح هو الذي قضى عليه أخيراً ، وعلى دولته ..

ولو تساءلنا : هل من الممكن أن يستمر حكم مروان أكثر مما استمر إذا كان يعتمد على القوة ؟..

نقول : ربما يستمر مثل هذا الحكم في شعب غير شعبنا .. أما في الشعب العربي القاطن بلاد الشام ، فلا يمكن أن يستمر طويلاً . ذلك لأن أبرز خصائص هذا الشعب الحساسية المفرطة ..

فالحاكم الذي يأتي إلى الحكم بصورة غير مشروعة ، دون أن يكون له حق به ، لا يمكن أن يرضى عنه أهل هذه البلاد . ولئن قابلوه بالاستسلام والطاعة . فإلى حين ، وما على الحاكم إلا أن يعوّض بأعماله القائمة على احترام كل الشعب ما تركه من أثر سيء عند مجيئه إلى الحكم ولا سيما إذا كان الوصول إلى السدة الأولى يعتمد على الدم .

أما الحاكم الذي يظن أنه إن أذل فئة ، وتقرب إلى فئة ، استطاع أن يبقى في الحكم ، فهو حاكم سطحي التفكير يعمل بنفسه على تجميع الفئتين ضده ، ويكون بذلك نهايته ونهاية حكمه ..

هذه الظاهرة ، الحساسية المفرطة ، ليس في عرضها أي غرور أو تبجح ، وربما كان كاتب هذه الأسطر لا يعجبه ذلك ، ولكن سواء أعجبه ، أم لم يعجبه ، فهذا أمر واقعي ..

لقد تجلت هذه الحساسية في عصر مروان ..

جاء مروان إلى الحكم إثر معركة عنيفة خلف وراءه آلاف القتلى ، وبالتالي آلاف الأحقاد .. وأنّى لهذه الأحقاد أن تمحى بمظاهر الكرم ، والتقرب للناس . ولهذا تحركت ضد مروان بثورات ، وثورات ، اشترك في بعضها أهل بيته وأبناء عمه .. وانتهت بإنهاك جيشه ، حتى إذا بدأ يسترجع أنفاسه فوجيء بثورة منظمة تندلع في خراسان ، وتتقدم نحو عاصمة ملكه ، وتلتقي معه في معركة كان الفشل حليفه فيها ...

* * *

هذه الحساسية المفرطة في أهل الشام طبعت عصر مروان بالعنف ، والثورة .. وهي نفسها تقبّلت الدعوة القادمة مع بني العباس ، ومهدت لهم سبيل الظفر في الداخل .

ولكن عندما لاحظ أهل الشام هذا التنكيل والبطش والدم ، تحمله طلائع

الجيش العباسي هدية للشعب وللأمويين . اتحدت الكلمة على أمر واحد ضد بني العباس . لقد اتحدت كلمة أعداء الدولة الأموية بالأمس مع أنصارها على حرب الدولة العباسية .. فعمت الثورات أرجاء بلاد الشام .ولم يُقض عليها إلا لتفرقها. ولو كانت مجتمعة القيادة لتغير وجه الحركة العباسية ذاتها ..

* * *

قد يظن بعض الناس أن هذا هو التناقض بعينه ، بل هذا هو النّفاق !.. فكيف يبايع أهل الشام شخصاً ، ثم يثورون عليه ؟.. هذا ليس من التناقض في شيء ، ولا من النفاق ، لو عقل هؤلاء ... ولو عرفوا سبب الثورة لأدركوا الحقيقة .. سبب الثورة يرجع إلى الحاكم نفسه ، تصرفه . تحيّزه . النيل من فئة من الشعب ، والتقرب إلى فئة ..

لقد تلقى الشعب في بلاد الشام حركة بني العباس بالقبول . ولكن لما بدأ هؤلاء الحكام ينكلون بفئات من الشعب ، وينتقمون منها ومن أفراد الأسرة الأموية بصورة وحشية ، تحرك أنصار الأمس بثورات عمّت البلاد .. ألا يقول العقلاء : إنهم في حركاتهم وثوراتهم كانوا على الحق ؟.. أليس الحاكم الأرعن ، الحاقد ، الذي يميز بين الناس بالرعاية والتكريم جديراً باللوم ؟..

* * *

نحن نقصد في هذه الخاتمة كشف ظاهرة في هذا الشعب الذي نعتز بشرف الانتماء إليه ، يعتبر كشفها برأينا ثمرة حية لدراسة التاريخ ..

تلكم هي رسالة المؤرخ وفائدة التاريخ ..

* * *

وعلى كل حال ، فإن مروان قائد من أعظم القواد . ولي الخلافة في شعبٍ لم يدرك نفسيته حق الإدراك ، فكان في ذلك القضاء عليه ، وعلى الأسرة الأموية في المشرق ..

ثبت المراجع

مرتبة حسب الهجائية للمؤلفين

ابن الأثير : أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم ابن عبد الواحد الشيباني ـ المعروف بابن الأثير الجزري

١ ـ الكامل في التاريخ
نشر إدارة الطباعة المنيرية سنة ١٣٥٧ هـ

٢ ـ اللباب في تهذيب الأنساب
نشر مكتبة القدسي ٠٠ القاهرة ١٣٥٧ هـ

٣ ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة
طبعة مصر سنة ١٢٨٠ هـ ٠

ابن خلدون : عبد الرحمن بن خلدون المغربي

٤ ـ كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر (المعروف بتاريخ ابن خلدون)
منشورات دار الكتاب اللبناني سنة ١٩٥٧

٥ ـ مقدمة ابن خلدون
طبعة دار البيان المصورة

ابن الداية : أحمد بن يوسف الكاتب المتوفى سنة ٣٥٠ هـ

٦ ـ المكافأة وحسن العقبى
تحقيق محمود محمد شاكر
طبعة دار الإستقامة بالقاهرة ـ طبعة أولى سنة ١٩٤٠

ابن سعد : محمد بن سعد كاتب الواقدي

٧ ـ كتاب الطبقات الكبير
طبعة ليدن سنة ١٣٢٢ هـ

ابن الطقطقي : محمد بن علي بن طباطبا

٨ ـ الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية
نشر محمود توفيق الكتبي ـ المطبعة الرحمانية سنة ١٣٣٩ هـ

ابن العبري : غريغوريوس أبو الفرج بن هارون الطبيب الملطي

٩ ـ تاريخ مختصر الدول
المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين
بيروت سنة ١٨٩٠

ابـن العــربي : القاضي أبو بكر بن العربي ـ المتوفى سنة ٥٤٣ هـ

١٠ ـ العواصم من القواصم
تحقيق محب الدين الخطيب ـ المطبعة السلفية في القاهرة
سنة ١٣٧١ هـ

ابـن عسـاكر : الحافظ ابن عساكر

١١ ـ تاريخ دمشق
مخطوط في المكتبة الظاهرية بدمشق
رقم ٣٣٦٦ عام (١)

١٢ ـ تهذيب تاريخ ابن عساكر ـ الشيخ عبد القادر بدران
طبعة روضة الشام سنة ١٣٣٢ هـ

ابـن قتيبـة : أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري

١٣ ـ عيون الاخبار
مطبعة دار الكتب المصرية ـ القاهرة سنة ١٩٢٥

١٤ ـ الإمامة والسياسة
تحقيق محمد محمود الرفاعي
مطبعة النيل ـ القاهرة سنة ١٣٢٢ هـ

ابـن كثير : عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٤ هـ

١٥ ـ البداية والنهاية في التاريخ
مطبعة السعادة في مصر

ابـن النـديم : **١٦ ـ الفهرست**
المطبعة الرحمانية ـ مصر سنة ١٣٤٨ هـ

أبـو الفـدا : عماد الدين إسماعيل أبو الفدا صاحب حماة المتوفى سنة ٧٣٢ هـ

١٧ ـ المختصر في أخبار البشر
الجزء الأول ـ الطبعة الأولى سنة ١٣٢٥ هـ

أبـو يعـلى : محمد بن الحسين بن محمد بن خلف بن أحمد بن الفرّاء البغدادي الحنبلي المتوفى سنة ٤٥٨ هـ

١٨ ـ الأحكام السلطانية
مطبعة البابي الحلبي ـ القاهرة ـ سنة ١٣٥٧ هـ

إبيـاري : إبراهيم الإبيـاري

١٩ ـ معـــاوية
نشر وزارة الثقافة والإرشاد القومي ـ مصر
سلسلة أعلام العرب رقم ٦

ارنولـــــد : ت. و. أرنولد

٢٠ ـ الدعوة الى الإسلام
ترجمة حسن ابراهيم حسن وعبد المجيد عابدين
واسماعيل النحراوي
نشر مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٤٧

الاصـــبهاني : أبو الفرج الأصبهاني

٢١ ـ الأغـــاني
تصحيح الشيخ أحمد الشنقيطي ـ مطبعة التقدم مصر
سنة ١٣٤٠ هـ

أمـير علي : سيد أمير علي

٢٢ ـ مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي
ترجمة رياض رأفت
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة
سنة ١٩٣٨

أمـــين : الدكتور أحمد أمين

٢٣ ـ فجر الاســلام
الطبعة السادسة سنة ١٩٥٠
لجنة التأليف والترجمة والنشر

أوبـــري : أوكتاف أوبري

٢٤ ـ قلب النسـر
كتاب الهلال ـ العدد السادس

البخـــاري : محمد بن إسماعيل البخاري المتوفى سنة ٢٥٦ هـ

٢٥ ـ التاريخ الكبير
طبعة دائرة المعارف العثمانية ـ حيدر أباد سنة ١٣٦٠هـ

البدليســـي : شرف خان البدليسي

٢٦ ـ شرفنامة
ترجمه من الفارسية محمد علي عوني
راجعه وقدم له يحيى الخشاب
نشر دار إحياء الكتب العربية في القاهرة
البابي الحلبي وشركاه

بروكلمـــان : كارل بروكلمان

٢٧ ـ **تاريخ الشعوب الاسلامية**
ترجمة نبيه فارس ومنير البعلبكي
طبعة دار العلم للملايين سنة ١٩٤٨

البغـــدادي : أبو منصور عبد القادر بن طاهر بن محمد البغدادي المتوفى سنة ٤٢٩ هـ

٢٨ ـ **الفرق بين الفرق**
تحقيق محمد بدر ـ طبعة القاهرة سنة ١٩١٠

البـــلاذري : أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري

٢٩ ـ **أنساب الأشراف ـ الجزء الخامس**
طبعة القدس سنة ١٩٣٦

البلخـــي : أبو زيد أحمد بن سهل البلخي

٣٠ ـ **البدء والتاريخ**
وهو منسوب للبلخي وحقيقته من تاليف مطهر بن طاهر المقدسي ـ طبعة سنه ١٩١٦

الجـــاحظ : ٣١ ـ **التاج في أخلاق الملوك**

تحقيق أحمد زكي باشا ـ المطبعة الأميرية ـ القاهرة
الطبعة الاولى سنة ١٩١٤

الجهشـــياري : أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري

٣٢ ـ **كتاب الوزراء والكتاب**
تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شـــلبي
طبعة أولى ـ القاهرة سنة ١٩٣٨

جولد تسـهير : أجناس جولدتسهير

٣٣ ـ **العقيدة والشريعة في الإسلام**
ترجمة محمد يوسف موسى وعبد العزيز عبد الحق
وعلي حسن عبد القادر
نشر دار الكاتب المصري ـ القاهرة سنة ١٩٤٦

حتـــي : فيليب حتي بالاشتراك مع ادوارد جرجي وجبرائيل جبور

٣٤ ـ **تاريخ العرب**
طبعة ١٩٥٢ ـ الجزء الثاني

حســـن : الدكتور حسن إبراهيم حسن

٣٥ ـ **تاريخ الإسلام السياسي**
الطبعة الأولى سنة ١٩٣٥

حســـــن : الدكتور علي إبراهيم حسن

٣٦ ــ التاريخ الإسلامي العام
مكتبة النهضة المصرية ــ الطبعة الأولى سنة ١٩٥٣

الحنبـــــلي : أبو الفلاح عبد الحي بن عماد الحنبلي المتوفى سنة ١٠٨٩ هـ

٣٧ ــ شذرات الذهب في أخبار من ذهب
نشر مكتبة المقدسي ــ القاهرة سنة ١٣٥٠ هـ

خدا بخش : المؤرخ الهنـدي

٣٨ ــ مقدمة لكتاب الحضارة الإسلامية : فون كريمر
من ص ١٧ــ٤٠ مع تعليقات من ص ١٤٥ــ١٦٢

خربوطلـــي : الدكتور علي حسني الخربوطلي

٣٩ ــ تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي
طبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٩

خضـــري : محمـد الخضري

٤٠ ــ إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء
الطبعة الثالثة سنة ١٩٣٤

٤١ ــ تاريخ الأمم الإسلامية ــ الدولة العباسية
الطبعة الثانية سنة ١٩٢١

الـــدوري : الدكتور عبد العزيز الدوري

٤٢ ــ مقدمة تاريخ صدر الإسلام
طبعة بغداد سنة ١٩٤٩

الدينـــوري : أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري توفي سنة ٢٨١ هـ

٤٣ ــ الأخبار الطـوال
المكتبة الأزهرية سنة ١٣٣٠ هـ

الذهبـــي : شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي

٤٤ ــ تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام
نشر مكتبة القدسي ــ القاهرة ١٣٦٧ هـ

رســـتم : الدكتور أسد رستم

٤٥ ــ مصطلح التاريخ
المطبعة الامريكية ــ بيروت سنة ١٩٣٩

الريـــس : الدكتور محمد ضياء الدين الريس

٤٦ ــ الخراج في الدولة الاسلامية
مكتبة نهضة مصر ــ القاهرة ــ طبعة أولى سنة ١٩٥٧

٤٧ ـ عبد الملك بن مروان
سلسلة أعلام العرب ـ رقم ١٠
نشر وزارة الثقافة والإرشاد القومي بمصر

ســـيديـو : ل٠ أ٠ سيديو

٤٨ ـ تاريخ العرب العام
ترجمة عادل زعيتر ـ طبعة سنة ١٩٤٨

الســـيوطي : جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي المتوفى سنة ٩٢١ هـ

٤٩ ـ فهرست تاريخ الخلفاء وامراء المؤمنين القائمين بامر الامة
إدارة الطباعة والنشر سنة ١٣٥١ هـ

الشهرســـتاني : أبو الفتح محمد بن عبدالكريم الشهرستاني المتوفى سنة ٥٥٤هـ

٥٠ ـ الملل والنحل ـ الجزء الاول
صححه وعلق عليه الشيخ أحمد فهمي أحمد
الطبعة الأولى سنة ١٩٤٨

الصـــدفي : رزق الله منقريوس الصدفي

٥١ ـ تاريخ دول الإسلام
مطبعة الهلال ـ مصر سنة ١٩١٣

الطبـــري : أبو جعفر محمد بن جرير الطبري

٥٢ ـ تاريخ الأمم والملوك
مطبعة الاستقامة ـ القاهرة سنة ١٩٣٩ ، وهي نسخة مقابلة على النسخة المطبوعة بمطبعة برايل بمدينة ليدن سنة ١٨٧٩

عبـد الحكم : أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم المتوفى سنة ٢١٤ هـ

٥٣ ـ سيرة عمر بن عبد العزيز
تحقيق أحمـد عبيـد
نشر المكتبة العربية بدمشق ـ الطبعة الرابعة سنة ١٩٦٦

عبـد ربـه : أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الاندلسي

٥٤ ـ العقد الفـريد
مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ـ القاهرة سنة ١٩٤٠

العـــش : الدكتور يوسف العش
٥٥ ـ الدولة الاموية
مطبعة جامعة دمشق سنة ١٩٦٥

العقـــاد : عباس محمود العقود

٥٦ ـ معاوية بن ابي سفيان

٥٧ ـ أبو الشهداء الحسين بن علي

٥٨ ـ عبقرية خالد
وجميعها من سلسلة كتاب الهلال

فــرح : العقيد محمد فــرح

٥٩ ـ المثنى بن حارثة الشيباني
سلسلة أعلام العرب (٣١)
نشر وزارة الثقافة والارشاد القومي بمصر

فلوتــن : فــان فلوتــن

٦٠ ـ السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات في عهد بني امية
ترجمة : حسن إبراهيم حسن ومحمد زكي إبراهيم
مطبعة السعادة ـ مصر ـ طبعة أولى سنة ١٩٣٤

الفهـــري : أبو بكر محمد بن محمد بن الوليد اللفهري الطرطوشي المالكي المتوفى سنة ٥٢٠ هـ

٦١ ـ سراج الملوك
المطبعة الأزهرية ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى سنة١٣١٩هـ

فيصـــل : الدكتور شكري فيصــل

٦٢ ـ المجتمعات الإسلامية في القرن الأول
نشر مكتبة دار المثنى ـ بغداد سنة ١٩٥٢

قـــرماني : أبو العباس أحمد يوسف بن أحمد الدمشقي **الشهير بالقرماني**

٦٣ ـ أخبار الدول وآثار الأول
مطبعة عباس التبريزي سنة ١٢٨٢ هـ

كاشـــف : الدكتورة سيــدة إسماعيل كاشف

٦٤ ـ الوليد بن عبد الملك
سلسلة أعلام العرب (١٧)
نشر وزارة الثقافة والإرشاد القومي بمصر

الكتبـــي : محمد بن شاكر بن أحمد الكتبي المتوفى سنة ٧٥٤ هـ

٦٥ ـ فوات الوفيات
طبعة مصر ـ ١٢٩٩ هـ

كــرد علي : محمد كــرد علي

٦٦ ـ **خطط الشام**
المطبعة الحديثة بدمشق سنة ١٩٢٥

٦٧ ـ **الإسلام والحضارة العربية ـ الجزء الثاني**
طبعة القاهرة سنة ١٩٣٦

٦٨ ـ **الجباية في الشام**
محاضرة منشورة في محاضرات المجمع العلمي العربي
بدمشق سنة ١٩٢٥ ـ المجلد الأول

كريمـــــر : فون كريمر

٦٩ ـ **الحضارة الاسلامية**
ترجمة الدكتور مصطفى طه بدر.
نشر دار الفكر العربي سنة ١٩٤٧

الكنـــدي : أبو عمر محمد بن يوسف الكندي المصري

٧٠ ـ **الولاة وكتاب القضاء**
مطبعة الآباء اليسوعيين ـ بيروت سنة ١٩٠٨

٧١ ـ **ولاة مصـر**
تحقيق الدكتور حسين نصار
نشر دار صادر ودار بيروت سنة ١٩٥٩

لويـــس : أرشيبالد ر. لويس

٧٢ ـ **القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط**
(٥٠٠ ـ ١١٠٠ م)
ترجمة أحمد محمد عيسى
راجعه وقدم له محمد شفيق غربال
نشر مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة

المـاوردي : أبو الحسن علي بن محمد حبيب البصري البغدادي الماوردي

٧٣ ـ **الاحكام السلطانية والولايات الدينية**
مكتبة الحلبي ـ مصر ـ الطبعة الاولى سنة ١٩٦٠

المســعودي : أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي المتـوفى سنة ٣٤٦ هـ

٧٤ ـ **مروج الذهب ومعادن الجوهر ـ الجزء الثالث**
تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ـ الطبعة الثانية
سنة ١٩٤٨

مصـــطفى : الدكتور شاكر مصطفى

٧٥ ـ **في التاريخ العباسي**
مطبعة الجامعة السورية سنة ١٩٥٧

معلـــــوف : عيسى اسكندر معلوف

٧٧ ـ حقائق تاريخية عن دمشق
محاضرة منشورة في محاضرات المجمـع العلمي العـربي
بدمشق سنة ١٩٢٥ ـ الجزء الاول

المقـــريزي : تقي الدين أحمد بن علي المقريزي

٧٦ ـ الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك
نشره لاول مرة الدكتور جمال الدين الشيال
طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة
سنة ١٩٥٥

نكلســـن : رينولد أ. نكلســـن

٧٨ ـ تاريخ الأدب العباسي
ترجمة صفاء الخلوصي
طبعة بإشراف جامعة بغداد

النوبختـــي : أبو محمد الحسن بن موسى النوبختي

٧٩ ـ فرق الشيعة
صححه وعلق عليه السيد محمد صادق آل بحرالعلوم
نشر المكتبة المرتضوية ـ النجف سنة ١٩٣٦

ولهـــاوزن : يوليوس ولهاوزن

٨٠ ـ الدولة العربية وسقوطها
ترجمة الدكتور العميد يوسف العش
مطبعة جامعة دمشق سنة ١٩٥٦

ياقـــوت : ياقوت الحموي

٨١ ـ معجم البلدان
القاهرة ـ الطبعة الاولى سنة ١٩٠٦

اليعقـــوبي : أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح الكاتب
العباسي المعروف باليعقوبي

٨٢ ـ تاريخ اليعقوبي ـ الجزء الثاني
طبعة بيروت سنة ١٩٦٠

بالاضافة الى مراجع ثانوية منوه عنها في حواشي الكتاب .

* * *

المحتوى

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

* * *